مجلة جامعة الملك سعود، م٩، الآداب (١)، ص ص ٩٧- ١٤٧ (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).

الثقافة التاريخية عند عرب الجاهلية: قراءة في الشعر الجاهلي

عبدالرحمن بن إبراهيم الدباسي

أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، ، كلية الآداب،

جامعة الملك سعود، الرياض ،

المملكة العربية السعودية

(قدم للنشر بتاريخ ١٤١٦/٦/١١هـ، وقبل للنشر بتاريخ ١٤١٦/١٠/٧هـ)

ملخص البحث. هذا البحث محاولة لدرء ما قد يتبادر إلى ذهن البعض من أن العرب في جاهليتهم لم يكونوا إلا بدواً رحلاً معزولين عمن سواهم من الأمم المجاورة لهم وألا حظ لهم من ثقافة أو علم، وإنما كان همهم ووكدهم رعي الشاء والبعير، فلم يحيطوا بمعارف من حولهم، فضلا عن إدراك من سبقهم وغبرت به السنون والدهور من الشعوب والأمم والملوك. وقد حاولتُ تأكيد عكس هذا الوهم من خلال تتبّع ما قد تشتمل عليه أسفار التراث ونفائسه من أخبار وأشعار تضمنت شيئا من علم العرب وثقافتهم التاريخية، ودلت دلالة أكيدة على أن العرب في جاهليتهم قد أدركوا طرفاً من خبر من كان قبلهم، وألموا بقدر صالح من ثقافة التاريخ، كما يبدو ذلك من النصوص التي اشتمل عليها هذا البحث. على أن هذا البحث هو بالدرجة الأولى محاولة لاستقراء النصوص الشعرية، واستخراج ما اشتملت عليه من ذكر من قد سبق من الأنبياء والرسل والأمم والشعوب عند الشعراء الجاهليين قبل الإسلام.

تمهيد

قد يخيّل إلى البعض أن العرب في جاهليتهم لم يكونوا ذوي حظ من ثقافة ولا علم، وأن معارفهم لا تعدو أن تكون معارف البدو والأمم المنعزلة عمن سواها من الأمم والشعوب ، ولهذا فسروا الجاهلية أحيانا بأنها هي التي في مقابل العلم ونقيضه،

لكننا حين نتتبع آثار العرب وأشعارهم فإننا سنظفر بحظ ـ وإن يكن غير وافر ـ دالّ على أن العرب لم يكونوا جهالاً لا نصيب لهم من علم أو معرفة، بل إن لهم من ذلك نصيباً يضاهي أحيانا ما لدى غيرهم من الأمم، وربما فاقها في بعض الجوانب.

فمن علومهم ومعارفهم علمهم بأنسابهم وأيامهم، ولعل أمة من الأمم لم تعن بأنسابها وأيامها كما عُني العرب في جاهليتهم وإسلامهم. وكذا علم الكواكب والأنواء والأزمنة، أو ما عرف بعد ذلك بعلم الفلك. وهو نوع من أنواع المعرفة التي حذقها العرب الجاهليون لحاجتهم الماسة إليها في حياتهم وتدبير أمور معيشتهم، وهي ثمرة الملاحظة والتجربة وطول الممارسة والمعاناة. يقول الشهرستاني: "اعلم أن العرب في الجاهلية كانت على ثلاثة أنواع من العلوم، أحدها: علم الأنساب والتواريخ والأديان، وأما النوع الثاني فهو علم الرؤيا، وأما النوع الثالث فهو علم الأنواء."[(١)]

يضاف إلى هذه المعارف ما برعوا فيه من فني الشعر والخطابة، إذ كانوا أهل فصاحة وبلاغة ولسن وبيان، وكانوا أصحاب مفاخرات ومنافرات تدفعهم إلى تتبع المثالب والمناقب، قال الجاحظ: "وكذلك العرب لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً ولا أطباء ولا حُساباً ولا أصحاب فلاحة... فحين حملوا حدهم ووجهوا قواهم إلى قول الشعر، وبلاغة المنطق، وتشقيق اللغة، وتصاريف الكلام، وقيافة البشر بعد قيافة الأثر، وحفظ النسب، والاهتداء بالنجوم، والاستدلال بالآثار، وتعرف الأنواء، والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب، والحفظ لكل مسموع، والاعتبار لكل محسوس، وإحكام شأن المناقب والمثالب، بلغوا في ذلك الغاية، وحازوا كل أمنية، وببعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر، وهممهم أرفع، وهم من جميع الأمم أفخر، ولأيامهم أذكر."[(٢)] وفي طبقات الأمم: "وأما علمها الذي كانت تفاخر به وتباري فيه فعلم لسانها، وأحكام لغتها، ونظم الأشعار، وتأليف الخطب، وكانت مع ذلك أهل علم الأخبار ومعدن

---

(١) أبوالفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني، *الملل والنحل*، تحقيق محمد سيد كيلاني (بيروت: دار المعرفة، د.ت.)، جـ٢، ص ص٢٣٨ - ٢٤٢؛ وانظر: ابن سعيد الأندلسي، *نشوة الطرب*، تحقيق نصرت عبدالرحمن (عمان: مكتبة الأقصى، ١٩٨٢م)، جـ١، ص٨٠.

(٢) أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ، رسالة مناقب الترك، *رسائل الجاحظ*، تحقيق عبدالسلام هارون، ط١(القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٣٩٩هـ/ ١٩٩٦م)، جـ٣، ص ص٢١٦، ٢١٧.

معرفة السير والأعصار. قال أبومحمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمذاني: ليس يوصل إلى خبر من أخبار العرب والعجم إلا بالعرب ومنهم. . . وكانوا يدخلون البلاد للتجارات فيعرفون أخبار الناس. . . فالعرب أصحاب حفظ ورواية، وكان للعرب مع هذا معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها، وعلم بأنواع الكواكب وأمطارها، على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة، لاحتياجهم لمعرفة ذلك في أسباب المعيشة، لا على طريق تعلم الحقائق ولا على سبيل التدرب في العلوم." (٣)

والذي أريد أن أستفرغ جهدي فيه من ألوان هذه المعارف والثقافات هو الثقافة التاريخية استنادا إلى ما جاء في نص الشهرستاني الذي سقته آنفا حين قال: إن أحد علوم العرب في جاهليتهم هو علم الأنساب والتواريخ والأديان. خاصة وأن إشارات تاريخية في شيء من الشعر الجاهلي كانت دافعا من دوافع الشك في هذا الشعر عند بعض من نقدوا هذا الشعر وزعموا أن أكثره منحول وموضوع. (٤)

أما الثقافة التاريخية العامة، فأمر لاشك أنه من الضرورات التي لا غنى عنها لكل أمة من الأمم، فأمة بلا ثقافة تاريخية هي أمة منقطعة مبتورة معلقة في فراغ أشبه ما تكون بالكرة مربوطة بخيط واه رفيع، يقول البيروني: "والتاريخ في مدة معلومة تُعد من لدن أول سنة ماضية كان فيها مبعث نبي بآيات وبرهان، أو قيام ملك مسلط عظيم الشان، أو هلاك أمة بطوفان عام مخرب، أو زلزلة وخسف مبيد، أو وباء مهلك، أو قحط مستأصل، أو انتقال دولة، أو تبدل ملة، أو حادثة عظيمة. . . ولكل واحدة من الأمم المتفرقة في الأقاليم تاريخ على حدة، تعدها من أزمنة ملوكهم أو أنبيائهم أو دولهم، أو

---

(٣) صاعد الأندلسي، *طبقات الأمم*، تحقيق حياة أبوعلوان، ط١ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٥م)، ص ص١١٨ - ١٢١؛ وانظر: ابن سعيد، *نشوة الطرب*، جـ١، ص ص ٨١، ٨٢؛ وأبا الفرج ابن العبري، *تاريخ مختصر الدول*، تصحيح أنطون اليسوعي (بيروت: دار الرائد اللبناني، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ص١٥٩.

(٤) انظر: ناصرالدين الأسد، *مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية*، ط٤ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩م)، ص ص ٣٦٠، ٣٦٢، ٣٨٩، ٣٩٠؛ وجارلز ليال، "الشعر العربي القديم - مصدرا للمعرفة التاريخية،" تعريب عبدالله أحمد المهنا، *مجلة كلية الآداب والتربية*، جامعة الكويت، ع١٢ (١٩٧٧م)، ص ص ١٠٥ - ١١٣.

سبب من الأسباب التي قدمت ذكرها، وتستخرج ما يحتاج إليه في المعاملات ومعرفة الأوقات وتنفرد به دون غيره. "(٥)

هل عرف العرب التاريخ؟

حاولت استقصاء النصوص المتعلقة بهذا الموضوع في المصادر المختلفة فظفرت منها بمجموعة يبدو فيها قدر غير يسير من التعارض أو التناقض، فبعضها دالّ على أن العرب لم يكونوا على وعي تاريخي ولم يكن لهم حظ من ثقافة تاريخية، ومن ذلك ما جاء عند الطبري في قوله: "لم يكونوا يؤرخون على أمر معروف يعمل به عامتهم... ولو كان لهم تأريخ على أمر معروف وأصل معمول عليه لم يختلف ذلك منهم. "(٦) وحين نقرأ عن بداية التأريخ بالهجرة النبوية وتعليل ذلك في بعض المصادر نحس بنحو من هذا التجهيل للعرب قبل الإسلام، "روى ابن أبي خيثمة من طريق ابن سيرين قال: قدم رجل من اليمن، فقال رأيت باليمن شيئا يسمونه التاريخ يكتبونه من عام كذا أو شهر كذا، فقال عمر: هذا حسن فأرخوا. "(٧)

ومع أن اليمن من بلاد العرب، إلا أن في النص ما يدلّ على جهل غير أهل اليمن، وخصوصا أهل المدينة، بالتاريخ. ونحوه عند البيروني، إذ يقول: "وإنما خص هذا الوقت - يعني تاريخ الهجرة - دون المولد والمبعث والوفاة، لأن عمر بن الخطاب، على رواية ميمون بن مهران، لما رُفع إليه صك محله في شعبان، قال عمر: أي شعبان؟ الذي نحن فيه أو الذي هو آت، ثم جمع أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فاستشارهم فيما دهمه من الحيرة في أمر الأوقات، فقالوا: يجب أن نتعرف الحيلة في ذلك من رسوم الفرس، فاستحضروا الهرمزان واستعلموه ذلك، فقال: إن لنا حسابا

(٥) أبوالريحان البيروني، *الآثار الباقية عن القرون الخالية* (ليبزج: د. ن.، ١٩٢٣م)، ص١٣.

(٦) محمد بن جرير الطبري، *تاريخ الأمم والملوك* (القاهرة: المطبعة الحسينية، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، جـ٢، ص ٣٩١؛ ونحوه عند عزالدين بن الأثير، *الكامل في التاريخ* (بيروت: دار صادر ودار بيروت، د. ت.)، جـ١، ص١٢.

(٧) ابن حجر العسقلاني، *فتح الباري بشرح صحيح البخاري*، بعناية محمد فؤاد عبدالباقي ومحب الدين الخطيب (القاهرة: المطبعة السلفية، د. ت.)، جـ٧، ص٢٦٩.

نسميه ماه روز، أي حساب الشهور والأيام، فعربوا ماه روز، فقالوا (مَوْرِخ) وجعلوه مصدر التأريخ، وشرح لهم الهرمزان كيفية استعمالهم ذلك وما عليه الروم من مثله، فقال عمر لأصحاب رسول الله: "ضعوا للناس تأريخا يتعاملون عليه." (٨)

"وروى الشعبي أن أباموسى الأشعري كتب إلى عمر بن الخطاب أنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ، وقد كان عمر دوّن الدواوين ووضع الأخرجة والقوانين، واحتاج إلى تاريخ، ولم يحب التاريخات القديمة، فجمع عليه عند ذلك واستشار، فكان أظهر الأوقات وأبعدها من الشبه والآفات وقت الهجرة." (٩) على أن هناك نصوصاً دالة على أن العرب في جاهليتهم كانوا يؤرّخون وإن كان تاريخهم في بعض هذه النصوص تاريخ الأعراب والبدو، إذ يظهر من تسمياتهم للأعوام والحوادث ما يدلّ على أنها صادرة عن بديهة الأعراب وارتجالهم في الأعم الأغلب، غير أنها في الوقت نفسه دليل على أنهم كانوا يؤولون إلى إشارات من الماضي هي أشبه بالمعالم والصوى في أرض فلاة، قال ابن حبيب: "تاريخ العرب الذي أرخت عليه من عام التفرق" (١٠) . . . فكان تاريخ العرب من عام التفرق وخروج ولد معد من مكة، ثم أرخوا من عام الغدر (١١) . . . فكان ذلك تاريخ قريش إلى عام الفيل . . . وأما الأعراب فإنما يؤرخون بما يكون في السنين من حرب أو عاهة وما أشبه ذلك، ومن ذلك قول النابغة الجعدي:

فَمَنْ يَكُ سَائلاً عَنِّي فَإِنِّي ... مِنَ الفِتْيَانِ فِي عَامِ الخُنَانِ

ومنه قول العجير السلولي:

رَأَتْنِي تَحَادَيْتُ الغَدَاةَ وَمَنْ يَكُنْ ... فَتًى قَبْلَ عَامِ المَاءِ فَهْوَ كَبِيرُ (١٢)

وقال الجاحظ: "كانت قريش وكنانة ومن والاهم من الناس يؤرخون بثلاثة أشياء،

(٨) البيروني، *الآثار الباقية*، ص ص ٢٩، ٣٠.

(٩) البيروني، *الآثار الباقية*، ص ٣٠.

(١٠) هو العام الذي بيّت فيه بختنصر أقواماً من العرب، فجعل يقتلهم، فخرجوا هاربين.

(١١) كان سبب عام الغدر أن رجلين من بني تميم خرجا حاجين فلقيا بأنصاب الحرم ملكا معه كسوة الكعبة، فقتلاه وأخذا ما معه، ودخلا مكة، حتى إذا كان أيام منى وهدأ الناس بلغهم الخبر، فغدرت العرب ببني تميم، وانتهب بعضهم بعضا، فسمي ذلك عام الغدر.

(١٢) محمد بن حبيب، *المحبر*، تصحيح إيلزة ليختن (حيدر آباد: مطبعة جمعية دائرة المعارف، ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م)، ص ص ٥ - ٨.

كانوا يقولون: كان ذلك زمن مبنى الكعبة، وكان ذلك زمن مجيء الفيل، وكان ذلك عام مات هشام بن المغيرة، كما كانت العرب تؤرخ فتقول: كان ذلك زمن الفطَحْل، وكان ذلك زمن الخُنان، وكان ذلك زمن الحجَارة. "[١٣]

وعند البلاذري: "قالوا: وكان كعبَ بن لؤي بن غالب عظيم القدر في العرب، فأرخوا بموته، إعظاما له، إلى أن كان عام الفيل فأرخوا به، ثم أرخوا بموت عبدالمطلب. "[١٤] وعند البيروني: "وكبني إسماعيل من العرب فإنهم كانوا يؤرخون ببناء إبراهيم وإسماعيل الكعبة، حتى تفرقوا وخرجوا من تهامة، فكان الخارجون يؤرّخون بخروجهم، والباقون بآخر الخارجين منهم، حتى طال الأمد فأرخوا بعام رئاسة عمرو بن ربيعة المعروف بعمرو بن لُحَي، وهو الذي يقال إنه بدّل دين إبراهيم... ثم أرخوا بعام موت كعب بن لؤي إلى عام الغدر، وهو الذي نهب فيه بنو يربوع ما أنفذه بعض ملوك حمير إلى الكعبة من الكسوة... ثم أرخوا بعام الغدر إلى عام الفيل ثم أرخوا به إلى تاريخ الهجرة... وبعض العرب كانوا يؤرخون بالوقائع المشهورة والأيام المذكورة الكائنة بينهم[١٥]... وكذلك كانت حمير وبنو قحطان تؤرخ بتبابعتها، كما كانت تؤرخ الفرس بأكاسرتها والروم بقياصرتها. "[١٦] وعند الألوسي: "وروي عن الزهري والشعبي أن بني إسماعيل أرخوا من نار إبراهيم - عليه السلام - إلى

(١٣) ابن أبي الحديد، شرح *نهج البلاغة*، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، ط٢ (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م)، جـ١٨، ص٢٨٦؛ وأبومنصور الثعالبي، *ثمار القلوب*، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ص٢٩٨.

(١٤) أبوعباس البلاذري، *أنساب الأشراف*، تحقيق محمد حميدالله (القاهرة: معهد المخطوطات العربية، مطابع دار المعارف، ١٩٥٩م)، جـ١، ص٤١.

(١٥) ذكر البيروني منها يوم الفجار، وحلف الفُضول، وعام موت هشام بن المغيرة، وبناء الكعبة، وبعض أيام العرب وما كَان بين قبائلهم منها، مثل يوم القضاء والربيع وداحس والغبراء وبُغاث والحنو وتَحلاق اللمم والقُصيبات... إلخ.

(١٦) البيروَني، *الآثار الباقية*، ص ص٣٤، ٣٥؛ ونحوه عند محمود شكرى الألوسي، *بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب*، بعناية محمد بهجة الأثري، ط٢ (القاهرة: المطبعة الرحمانية، ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م)، جـ٣، ص ص ٢١٤، ٢١٥.

بنائه البيت حين بناه مع إسماعيل، وأن بني إسماعيل أرّخوا من بنيان البيت إلى تفرق معد. "[١٧] وقال الألوسي أيضا: "وكانت العرب تؤرخ بكل عام يكون فيه أمر مشهور متعارف، فأرخوا بعام الفيل، وفيه ولد النبي، صلى الله عليه وسلم، وكان في السنة الثامنة والثلاثين من ملك كسرى أنوشروان، وأرخت العرب بعام الخُنان، لأنهم تماوتوا فيه وعظم عندهم أمره. . . وأرّخت قريش بموت هشام بن المغيرة المخزومي لجلالته فيهم، ولذلك قال شاعرهم:

وَأَصْبَحَ بَطْنُ مكَّةَ مُقْشَعِرّا كَأَنَّ الأَرْضَ لَيْسَ بِهَا هِشَامُ[١٨]

وقال المسعودي: "وكانت العرب قبل ظهور الإسلام تؤرخ بتواريخ كثيرة، فأما حمير وكهلان. . . بأرض اليمن فإنهم كانوا يؤرخون بملوكهم السالفة من التبابعة وغيرهم. . . وأرخوا ببعث شعيب بن مهدم، وملك ذي نواس، وملك جذيمة بن مالك. . . ثم أرّخوا بظهور الحبشة على اليمن، ثم غلبة الفرس على اليمن وإزالة الحبشة، إلى أن جاء الله بالإسلام. فأما تاريخ ولد معد بن عدنان فإنهم كانوا يؤرخون بغلبة جرهم العماليق وإخراجهم إياهم من الحرم، ثم أرخوا بهلاك جرهم في الحرم، ثم أرخوا بعد ذلك بعام التفرق. . . ثم أرخوا بعد ذلك بعام الفساد. . . وأرخوا بحجة الغدر، وكانت قبل الإسلام بنحو من مائة وخمسين سنة. . . وأرخوا بالحرب بين ابني وائل بكر وتغلب المعروفة بحرب البسوس. . . وأرخوا بحرب بني بغيض بن ريث بن غطفان المعروفة بحرب داحس والغبراء، وذلك قبل البعث بنحو من ستين سنة، وبحرب الأوس والخزرج. . . وأرخوا بعام الخنان. . . وكانت كل قبيلة من قبائل العرب تؤرخ بيوم من أيامها المشهورة في حروبها. . . وإياد تؤرخ بخروجها من تهامة وحروبها مع فارس. . . ثم أرخوا بخروجهم من العراق إلى الجزيرة. . . ثم أرخوا بعام الانتقال من ديارهم إلى بلد الروم. . . والأوس والخزرج ابنا حارثة تؤرخ بعام الآطام لما تحاربوا على الآطام، وهي الحصون والقصور. . . وأرخ بنو إسماعيل من بناء البيت حين بناه إبراهيم وإسماعيل فلم يزالوا يؤرخون بذلك حتى تفرقت معد، وكان كلما

(١٧) الألوسي، *بلوغ الأرب*، جـ٣، ص٢١٥.

(١٨) الألوسي، *بلوغ الأرب*، جـ٣، ص ص ٢١٤، ٢١٥. والخُنان: داء يأخذ الإبل في مناخرها، وقيل يأخذ الناس، أو يأخذ الطير، كما سيأتي بيانه.

خرج قوم من تهامة أرخوا بمخرجهم . . . حتى مات كعب بن لؤي فأرخوا من موته إلى الفيل، ومنهم من كان يؤرخ بيوم الفجَار بين قريش وسائر كنانة . . . ومنهم من كان يؤرخ بحلف الفضول، وكان بعد متفرقهم من الفِجَار . . . وقريش تؤرخ بموت هشام ابن المغيرة المخزومي والفيل . "[١٩]

وفي الشعر السالف للنابغة الجعدي:

فَمَنْ يَكُ سَائلاً عَنِّي فَإنِّي مِنَ الفتْيَان في عَامِ الخُنَان[٢٠]

قال الأصمعي: كان الخنان داء يأخذ الإبل في مناخرها وتموت منه، فصار ذلك تاريخا لهم، وكان ذلك في أيام المنذر بن ماء السماء، وقيل داء يأخذ الناس، وقيل داء يأخذ الطير في حلوقها،[٢١] وقال ابن سلام الجمحي: "سئل محمد بن حبيب عن أيام الخنان ما هي؟ فقال: وقعة لهم. "[٢٢] وعند المرزوقي: "وكما أرخوا قبله ـ قبل الرسول، صلى الله عليه وسلم ـ بعام الخنان، لأنهم تماوتوا فيه وعظم أمره عليهم. "[٢٣] وفي نص الجاحظ المتقدم كانت العرب تقول: "كان ذلك زمن الفطَحل، وزمن الخنان، وزمن الحجارة، " وفي اللسان: "زمن الفطحل: دهر لم يخلقَ الناس فيه بعد، وزمن الفطحل زمن نوح، عليه السلام . . . وقال أبوحنيفة: "يقال أتيتك عام الفطحل والهدملة، يعني زمن الخصب والريف . . . والفطحل السيل. "[٢٤] والبداوة والسذاجة في مثل هذا التاريخ ظاهرة، ولعله من الأمور المتداولة بين العامة التي لا حقيقة لها ولا وزن، بل هي أمور تعرض في كلامهم ضمن أقاصيص العجائز والصبيان وفي مجالس اللهو

(١٩) أبوالحسن المسعودي، *التنبيه والإشراف* (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩٣م)، ص ص ٢٠٢ - ٢١١.

(٢٠) شعر *النابغة الجعدي*، تحقيق عبدالعزيز رباح، ط١ (دمشق: المكتب الإسلامي، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م)، ص١٦٠؛ وابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط٢ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٧م)، جـ١، ص٢٩٤؛ وابن سلام الجمحي، *طبقات فحول الشعراء*، قراءة وشرح محمود محمد شاكر (القاهرة: مطبعة المدني، د. ت.)، جـ١، ص١٢٤.

(٢١) أبوالفضل جمال الدين بن منظور، *لسان العرب* (بيروت: دار صادر، د. ت.)، "خنن. "

(٢٢) ابن سلام الجمحي، *طبقات فحول الشعراء*، جـ١، ص١٢٤.

(٢٣) أبوعلي المرزوقي، *الأزمنة والأمكنة*، ط١ (حيدر آباد: مطبعة دائرة المعارف، ١٣٣٢هـ)، جـ١، ص٢٦٩.

(٢٤) ابن منظور، *لسان العرب*، "فطحل. "

والمسامرة لما تشتمل عليه من الغرابة والطرافة، كما هو الحال في التركيبة القصصية الخيالية المؤلفة من عناصر غير متجانسة في بعض أقاصيص العامة في كل عصر. قال رؤبة:

إنَّكَ لَوْ عُمِّرْتَ عُمْرَ الحِسْلِ أوْ عُمْرَ نُوْحٍ زَمَنَ الفطَحْلِ
وَالصَّخْرُ مُبْتَلٌّ كَطِيْنِ الوَحْلِ كُنْتَ رَهِيْنَ هَرَمٍ أوْ قَتْلِ

وسئل عن زمن الفطحل، فقال: أيام كانت الحجارة رطبة، وإذ كل شيء ينطق. وزعم بعض أهل اللغة أن زمن الفطحل هو زمن الخصب والسعة، وأنهم يعنون برطوبة السِّلام ابتلال الصخر ورفاهية العيش واتصال الغيوث وصدق الأنواء. قال القاضي الجرجاني: أما قولهم: أيام كانت الحجارة رطبة، وإذ كل شيء ينطق فهما من الأمور التي يتداولها جهلة الأمم، وهو الظاهر بين أغفال العرب والعامة، وهذا أمية بن أبي الصلت - وهو من حكماء العرب المتخصصين منها بالرؤية - يقول:

وَإذْ هُمْ لاَ لَبُوْسَ لَهُمْ عُرَاةٌ وَإذْ صُمُّ السِّلامِ لَهُمْ رِطَابُ
بِآيةِ قَامَ يَنْطِقُ كُلُّ شَيء وَخَانَ أمَانَةَ الدِّيْكِ الغُرَابُ[٢٥]

وقال الجاحظ: "وكانت العرب تقول: كان ذلك إذ كل شيء ينطق، وكان ذلك والحجارة رطبة" ثم ساق بيتي أمية.[٢٦] قلت: وزَعْمُ بعض أهل اللغة أن رطوبة الحجارة هي ابتلال الصخر ورفاهية العيش أمر فيه قول، وهو إلى تكلف التفسير أقرب، ينقضه أو يوهنه قولهم: كان ذلك إذ كل شيء ينطق، وكان ذلك والحجارة رطبة في نص الجاحظ، فهو أقرب - فيما أرجّحه - إلى أن يكون كلاماً، أو إن شئت تاريخاً، لا يُعتد به ولا يُعول عليه، وهو بالخرافة أوثق وأجدر.

وأرخت العرب بزمن الفساد، وهو زمن وقعت فيه حرب بين جديلة وثعل قوم حاتم الطائي، ويبدو أنها كانت حرباً طويلة استمرت فيما يقول المسعودي: مائة وثلاثين

(٢٥) الثعالبي، *ثمار القلوب*، ص ص ٦٤٢، ٦٤٣.

(٢٦) أبوعثمان عمرو بن الجاحظ، *الحيوان*، تحقيق عبدالسلام هارون، ط٢ (القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨٥هـ/ ١٣٨٧هـ)، جـ٤، ص١٩٦.

سنة، حتى سُمّي الزمن الذي وقعت فيه بزمن الفساد،[٢٧] قال حاتم[٢٨]:

إنْ كُنْـــت كَارِهَةً لعَيْشَـــتنَا هَاتِـــي فَحُـــلِّي في بَنِي بَـدْرِ
جَاوَرْتُهُمْ زَمَنَ الفَسَادِ فَنِعْـــ ـــم الحَيُّ في العَوْصَاءِ وَاليُسْرِ

واتخذت قريش موت هشام بن المغيرة المخزومي تاريخًا لهم.[٢٩] وعند أبي الفرج: "ولما مات الوليد بن المغيرة أرّخت قريش بوفاته مدة لإعظامها إياه، حتى كان عام الفيل فجعلوه تاريخا، هكذا ذكر ابن دأب. وأما الزبير بن بكار فذكر عن عمرو بن أبي بكر المؤملي أنها كانت تؤرخ بوفاة هشام بن المغيرة تسع سنين إلى أن كانت السنة التي بنوا فيها الكعبة، فأرخوا بها."[٣٠]

واستمرت العرب في صدر الإسلام تسمى بعض الأعوام بما يكون فيها من الحوادث والأمور المهمة، مثل عام الحزن، وهو العام الذي توفيت فيه أم المؤمنين خديجة، رضي الله عنها، وعام الرمادة للعام الذي اشتد فيه القحط، وعام الجُحاف، وهو سيل كان ببطن مكة أجحف بالناس، وذهب بالإبل عليها الحمولة.[٣١] وعند البيروني: "وقد كان الناس على عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، سمّوا كل سنة مما بين الهجرة والوفاة باسم مخصوص بها مشتق مما اتفق فيها له، عليه السلام، فالأولى بعد الهجرة سنة الإذن، والثانية سنة الأمر بالقتال، والثالثة سنة التمحيص، والرابعة سنة التّرْفئة، والخامسة سنة الزلزال."[٣٢] ولعل مثل هذه التسميات في صدر الإسلام هي أثارة مما

---

(٢٧) المسعودي، *التنبيه والإشراف*، ص٢٠٧.

(٢٨) *ديوان شعر حاتم الطائي*، دراسة وتحقيق عادل سليمان جمال، ط٢ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م)، ص ص ٤١، ٤٣، ١٣٧، ٢٠٤؛ وأبوالفرج الأصفهاني، *الأغاني*، تحقيق على محمد البجاوي (بيروت: مؤسسة جمال للطباعة والنشر، د.ت.)، جـ١٧، ص٣٩٣.

(٢٩) ابن حبيب، *المحبر*، ص ص ١٣٩، ٤٥٧.

(٣٠) أبوالفرج الأصفهاني، *الأغاني* (بيروت: مؤسسة جمال للطباعة والنشر، د.ت. عن طبعة دار الكتب المصرية)، جـ١٦، ص١٩٤.

(٣١) الثعالبي، *ثمار القلوب*، ص٦٤٤.

(٣٢) البيروني، الآثار الباقية، ص٣١.

كانوا عهدوه واعتادوه قبل الإسلام من إطلاق اسم على العام أو السنة يوافق ما كان لهم فيهما من شأن خطير أو أمر جلل له أثره في حياتهم.

ثقافة تاريخية أكثر دقة وتحديدا

هناك من ذهب إلى أن التاريخ الذي يؤرخه الناس ليس بعربي محض، وأنهم إنما أخذوه عن أهل الكتاب، وتاريخ المسلمين أرّخ من زمن هجرة النبي، صلى الله عليه وسلم، كتب في خلافة عمر، رضي الله عنه، فصار تاريخاً إلى اليوم.[٣٣] ولعل العرب في ثقافتهم التاريخية ووعيهم التاريخي قد تأثروا شيئا ما بغيرهم من الأمم، وخاصة بأهل الكتاب من اليهود والنصارى، بحكم اتصالهم بهذه الأمم. وقد تنصرت قبائل عربية وتهودت أخرى،[٣٤] ورحل بعض العرب في جاهليتهم إلى الأمم المتاخمة لجزيرتهم، فعرفوا أخبارهم، وقرأوا آثارهم، وثقفوا شيئاً من علومهم ومعارفهم. فهذا النضر بن الحارث القرشي كان يرحل إلى بلاد فارس فيأخذ من أخبار ملوكهم كرستم وإسفنديار، ثم يحدث بها قومه حين يرجع إليهم،[٣٥] وعبدالله بن عمرو بن العاص كان قارئاً للكتب المتقدمة، ويكتب بالسريانية والعربية،[٣٦] وورقة بن نوفل الموصوف بأنه صاحب العلم في الجاهلية كان قد قرأ الكتب وتبحر في التوراة والإنجيل،[٣٧] وعلى شاكلته زيد بن عمرو بن نفيل، وعبدالله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وغيرهم

---

(٣٣) ابن منظور، *لسان العرب* "أرخ."

(٣٤) الجاحظ، "رسالة الرد على النصارى" *رسائل الجاحظ*، جـ٣، ص ص ٣١١ - ٣١٣.

(٣٥) ابن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تحقيق محمود محمد شاكر (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٧م)، جـ١٣، ص ص ٥٠٣، ٥٠٤؛ وابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، جـ٢، ص٧٣.

(٣٦) ابن قتيبة، *المعارف*، تحقيق ثروت عكاشة، ط٢ (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ص٢٨٧؛ *وتأويل مختلف الحديث*، صححه وضبطه محمد زهري النجار (بيروت: دار الجيل، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٢م)، ص٢٨٧.

(٣٧) أبوبكر بن دريد، *الاشتقاق*، تحقيق عبدالسلام هارون (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م)، ص١٦٤؛ وابن قتيبة، المعارف، ص ص ٥٩، ٦٠؛ الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٣، ص١٢٠.

ممن طلبوا الدين والتمسوه عند أهل الكتاب، فتنصر نفر منهم وبقي آخرون على الحنيفية دين إبراهيم الخليل، عليه السلام.[٣٨] أما أمية بن أبي الصلت، فقد نظر في الكتب وقرأها، ولبس المسوح تعبدا، وكان ممن ذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية[٣٩] قال عنه ابن قتيبة: "وقد كان قرأ الكتب المتقدمة... وكان يحكى في شعره قصص الأنبياء، ويأتي بألفاظ كثيرة لا تعرفها العرب، يأخذها عن الكتب المتقدمة، وبأحاديث من أحاديث أهل الكتاب."[٤٠] وكان بعض العلماء يقول: لولا النبي لادعت ثقيف أمية نبي، لأنه قد دارس النصارى، وقرأ معهم، ودارس اليهود، وكل الكتب قرأ، ولم يسلم.[٤١] وأبوقيس صرمة بنّ أبي أنس، من بني النجار، كان قد ترهب، ولبس المسوح، وفارق الأوثان، وهمّ بالنصرانية، ثم أمسك عنها، وقال: أعبد رب إبراهيم.[٤٢] وقيس بن نشبة بن عامر، وهو الذي وفد على النبي، صلى الله عليه وسلم، ـ وكان قد قرأ الكتب ـ فقال للنبي: إنه لم يبعث الله نبياً قط إلا وسيطاً في قومه مرضيا، وقد علمنا أنك وسيط في قومك مرضي عندهم، ولكن أتأذن فأسألك عما كانت تسأل عنه الأنبياء.[٤٣] وبشير بن كعب كان أيضا ممن قرأ الكتب، وهو الذي حينما حدثه عمران بن حصين، فقال له: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: الحياء لا يأتي إلا بخير، قال: إن في الحكمة أن فيه ضعفا، وسويد بن الصامت

---

(٣٨) انظر في أخبارهم: ابن هشام، *السيرة النبوية*، تحقيق مصطفى السقا وآخرين (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت.)، جـ١، ص ص ٢٣٨ - ٢٤٠؛ وابن قتيبة، *المعارف*، ص ٢٤٥؛ ومحمد بن حبيب، *المحبر*، ص ص ١٧١ - ١٧٥؛ و *المنمق في أخبار قريش*، ط١ (حيدر آباد: مطبعة دائرة المعارف، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م)، ص ص ١٧٥ - ١٧٨؛ والأصفهاني، *الأغاني*، جـ٣، ص١٢٧؛ وابن حجر، *فتح الباري*، جـ٧، ص ص ١٤٢، ١٤٣.

(٣٩) أبوالفرج الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٤، ص ص ١٢١، ١٢٢؛ والجاحظ، *الحيوان*، جـ٢، ص٣٢٠؛ وابن قتيبة، *المعارف*، ص٦٠؛ وابن حجر، *فتح الباري*، جـ٧، ص ص ١٤٩ - ١٥٣؛ وعبدالقادر البغدادي، *خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب*، تحقيق عبدالسلام هارون، ط٢ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩ - ١٩٨٣م)، جـ١، ص٢٥١.

(٤٠) ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، جـ١، ص٤٥٩.

(٤١) ابن دريد، *الاشتقاق*، ص٣٠٣.

(٤٢) ابن قتيبة، *المعارف*، ص٦١.

(٤٣) ابن حبيب، *المنمق*، ص١٦٥.

الذي كانت معه صحيفة فيها حكمة لقمان.[٤٤] وقال ابن عبدالبر في شأن النابغة الجعدي: "كان يذكر في الجاهلية دين إبراهيم، عليه السلام، والحنيفية، ويصوم، ويستغفر، فيما ذكروا."[٤٥] ويروى أن الأعشى ميمون بن قيس كان قد سمع قراءة الكتب،[٤٦] وكان يفد على ملوك فارس، ولذلك كثرت الفارسية في شعره.[٤٧] وقال الجاحظ في شأن عدي بن زيد العبادي: "كان عدي نصرانياً ديناً وترجماناً وصاحب كتب،[٤٨] وقال عنه المقدسي: "وكان عدي أحد الحكماء من قراء الكتب."[٤٩] وعد المؤرخون نفراً من زنادقة قريش، وكانت قريش أخذت الزندقة من الحيرة.[٥٠] وعند ابن هشام: "ولم يكن حي من العرب أعلم بأمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حين ذكر وقبل أن يذكر، من هذا الحي من الأوس والخزرج، وذلك لما كانوا يسمعون من أحبار اليهود، وكانوا لهم حلفاء ومعهم في ديارهم."[٥١] وذكر الإخباريون أن صوراً لمريم وإبراهيم وبعض الأنبياء، عليهم السلام، كانت معلقة في جوف الكعبة.[٥٢] وعدد ابن حبيب أبناء النبطيات وأبناء اليهوديات والنصرانيات والحبشيات والسنديات من قريش،[٥٣] وكانت أم الحارث بن عبدالله أخي عمر بن أبي ربيعة نصرانية، ويُروى أنها كانت تسر ذلك، وأن الحارث لما مات وجد الصليب في عنقها.[٥٤]

---

(٤٤) ابن هشام، *السيرة النبوية*، جـ٢، ص٦٨؛ وابن منظور، *لسان العرب*، (جلل).

(٤٥) ابن عبدالبر، *الاستيعاب في معرفة الأصحاب*، تحقيق على محمد البجاوي (القاهرة: مكتبة نهضة مصر، د. ت.) جـ٣، ص٥٥٣.

(٤٦) البغدادي، *الخزانة*، جـ١، ص١٧٧.

(٤٧) ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، جـ١، ص٢٥٨.

(٤٨) الجاحظ، *الحيوان*، جـ٤، ص١٩٧.

(٤٩) المقدسي، *البدء والتاريخ* (باريس: د. ن.، ١٩١٩م)، ص٢٠٤.

(٥٠) ابن حبيب، *المنمق*، ص ص ٤٨٧، ٤٨٨؛ وابن قتيبة، *المعارف*، ص٦٢١.

(٥١) ابن هشام، *السيرة النبوية*، جـ١، ص٣٠٢.

(٥٢) أبوالوليد الأزرقي، *أخبار مكة*، تحقيق رشدي الصالح ملحس (مدريد: مطابع ماتيوكرومر، د. ت.)، جـ١، ص١٦٥.

(٥٣) ابن حبيب، *المحبر*، ص ص ٣٠٥ - ٣٠٧؛ ابن حبيب، *المنمق*، ص ص ٥٠٣ - ٥٠٨.

(٥٤) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ١، ص ص ٦٦، ٦٧.

وبعد كل هذه النصوص الدالة على أن العرب قد اختلطوا بأهل الكتاب وبمن حولهم، وعلموا من أخبارهم ما علموا، وخبروا من أديانهم ما خبروا، وحذقوا من علومهم وثقافاتهم ما حذقوا - وهي غيض من فيض - فلا غرابة أن يذهب البعض إلى أن التاريخ الذي أرّخت به العرب ليس بعربي محض، وأنهم إنما أخذوه عن أهل الكتاب.

وإذا ما فحصنا المصادر العربية المختلفة فإننا لن نخطئ نصوصاً دالة على أنه كانت للعرب الجاهليين معارف تاريخية أكثر دلالة على الضبط والدقة في رصد مسار التاريخ الزمني والإنساني، وأكثر دلالة على الحس التاريخي الذي كان لدى عرب الجاهلية، يضاف إلى ما سبق أن أوردناه من النصوص من قبل. قال الألوسي: "فأما العرب فكانوا يؤرّخون بالنجوم قديما، وهو أصل، ومنه صار الكُتاب يقولون: نجّمت على فلان كذا حتى يؤديه في نجوم وأنجمة، جمع نجم."[٥٥] وعند ابن منظور: "ومنه تنجيم المكاتب ونجوم الكتابة، وأصله أن العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت حلول ديونها وغيرها، فتقول: إذا طلع النجم: حل عليك مالي."[٥٦] وربط نزول المطر عند الجاهليين بالأنواء والبروج هو لون من ألوان التاريخ، وشكل من أشكال الحساب، وهو لاشك ثمرة التجربة والخبرة والملاحظة، وفي حديث زيد بن خالد الجهني، قال: صلى لنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف النبي، صلى الله عليه وسلم، أقبل على الناس، فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب.[٥٧] وهذا يوم عاشوراء المرتبط تاريخياً بنجاة موسى، عليه السلام، ومن معه من الغرق، كانت اليهود تصومه شكراً لله، كما جاء في الحديث الشريف: "قدم النبي، صلى الله عليه وسلم، المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم

(٥٥) الألوسي، *بلوغ الأرب*، جـ١، ص٢١٤.
(٥٦) ابن منظور، *لسان العرب*، (نجم).
(٥٧) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ٢، ص٥٢٢.

نجّى الله بنى إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، قال: فأنا أحق بموسى منكم، فصامه وأمر بصيامه. "[٥٨] وقد صامت قريش هذا اليوم في جاهليتها، قالت عائشة، رضي الله عنها: "كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية، وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يصومه في الجاهلية، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه. "[٥٩]

وفي النسيء دلالة على أن العرب كانت تضبط حساب الزمن، وتتصرف فيه بنوع من التصرف يوافق مقتضيات معاشها وظروف حياتها "ونسأة الشهور من كنانة، وهم القلامسة، واحدهم قَلَمّس، وكانوا فقهاء العرب والمفتين لهم في دينهم، وكانت العرب ربما تعيش من سيوفها ورماحها، فيشق عليهم موالاة الأشهر الحرم الثلاثة عليها، فكان القلمّس من هؤلاء القلامسة يقوم أيام التشريق في الحجْر فيفتيهم، لا يُسأل أحد عن شيء غيره، فيقوم رجل منهم عند باب الكعبة ويقَوم رجل آخر في الحجْر، فيقول كل واحد منهما: أنا الذي لا أعاب ولا أحاب ولا يرد قضاء قضاه. فإن جاءه قوم يريدون الغارة في المحرم يسألوه أن يؤخر لهم المحرم، فيحسب لهم، ويقول: هذا العام صفر الأول. . . فيصدرون على ذلك، فيؤخر المحرم ويقدم صفر، فيحل المحرم عاما ويحرمه عاما. "[٦٠] وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ سورة التوبة، ﴿٣٧﴾[٦١] وعند البيروني في نص أدل على الضبط والدقة في الحساب ما يشير إلى أن العرب قد تأثروا باليهود في التصرف في حساب الأوقات، قال: "وأما العبرانيون واليهود وجميع بني إسرائيل والصابئون والحرانيون فإنهم قالوا بقول بين قولين، فأخذوا سنتهم من مسير الشمس وشهورها من مسير القمر. . . فكبسوا كل تسع عشرة سنة قمرية بسبعة

---

(٥٨) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ٤، ص٢٤٤.

(٥٩) ابن حجر، *فتح الباري*، جـ٤، ص٢٤٤.

(٦٠) ابن حبيب، *المحبر*، ص١٥٧؛ وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية، جـ١، ص ص ٤٥، ٤٦؛ والشهرستاني، *الملل والنحل*، جـ٢، ص٢٤٨؛ وجواد علي، *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، ط١ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٨ - ١٩٧٣م)، جـ٨، ص ص ٤٣٩، ٤٨٨.

(٦١) سورة التوبة، آية ٣٧.

أشهر . . . وكذلك كانت العرب تفعل في جاهليتها، فينظرون إلى فصل ما بين سنتهم وسنة الشمس وهو عشرة أيام وإحدى وعشرون ساعة وخمس ساعة بالجليل من الحساب فيلحقونها بها شهرا كلما تم منها ما يستوفى أيام شهر، ولكنهم كانوا يعملون على أنه عشرة أيام وعشرون ساعة، ويتولى ذلك النسأة من كنانة المعروفون بالقلامس، واحدهم قلمّس، وأول من فعل ذلك منهم كان حُذيفة وهو ابن عبد بن فُقَيم بن عَديّ . . . وكان أخذ ذلك من اليهود قبل ظهور الإسلام بقريب من مائتي سنة . "(٦٢)

وفي نص آخر له: "وكانوا في الجاهلية يستعملونها على نحو ما يستعمله أهل الإسلام، وكان يدور حجهم في الأزمنة الأربعة، ثم أرادوا أن يحجوا في وقت إدراك سلعهم من الأدم والجلود والثمار وغير ذلك، وأن يثبت ذلك على حالة واحدة وفي أطيب الأزمنة وأخصبها، فتعلموا الكبس من اليهود المجاورين لهم، وذلك قبل الهجرة بقريب من مائتي سنة، فأخذوا يعملون بها ما يشاكل فعل اليهود من إلحاق فضل ما بين سنتهم وسنة الشمس شهرا بشهورها إذا تم، ويتولى القلامس من كنانة بعد ذلك أن يقوموا بعد انقضاء الحج، ويخطبون في الموسم ويُنْسِئون الشهر ويسمون التالي له باسمه، فيتفق العرب على ذلك . "(٦٣)

وعند ابن الأجدابي: "ومقدار السنة عند العرب اثنا عشر شهرا قمرية، وكذلك هي عند العبرانيين واليونانيين، إلا أن هؤلاء يزيدون في كل ثلاث سنين من سنيهم شهرا، فتكون الثالثة من سنيهم أبدا ثلاثة عشر شهرا قمرية، يسمونها الكبيسة . . . وقد كانت العرب في الجاهلية تفعل مثل هذا، وتزيد في كل ثالثة من سنيها على نحو ما ذكرنا عند العبرانيين واليونايين، وكانوا يسمون ذلك النسيء، وكانت سنة النسيء ثلاثة عشر شهرا قمرية، وكانت شهورهم حينئذ غير دائرة في الأزمنة، كان لكل شهر منها زمن معلوم لا يعدوه، فهذا كان فعل الجاهلية حين أحدثوا النسيء . "(٦٤) وهذا العمل هو نتيجة

---

(٦٢) البيروني، *الآثار الباقية*، ص ص ١١، ١٢ .

(٦٣) البيروني، *الآثار الباقية*، ص٦٢؛ *والقانون*، المسعودي، ط١ (حيدر آباد: مطبعة دائرة المعارف، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م)، جـ١، ص ص ٩٢، ١٣١ .

(٦٤) أبو إسحق بن الأجدابي، *الأزمنة والأنواء*، تحقيق عزة حسن (دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد، ١٩٦٤م)، ص ص ٣١ - ٣٣ .

لإدراك الجاهليين أن السنة القمرية أقصر من السنة الشمسية، وأنها لاتوافق اختلاف الفصول الأربعة، ولهذا أوجدوا النسيء (الكبس) بأن يزيدوا على كل ثلاث سنوات شهراً قمريا، وكان في الجاهلية ـ كما بيّنت النصوص ـ نسأة عملهم تقدير الأوقات التي يجب أن يكون فيها النسيء. وكان اعتماد العرب في جاهليتهم على الأهلة، فكانوا يفتحون الشهر إذا رأوا الهلال، ويجعلون ابتداءه من أول الليلة التي ظهر فيها الهلال، وكانوا يسمون تلك الليلة (غرة الشهر) لكون الهلال في أولها كالغرة في وجه الفرس، ثم لا ينقضي الشهر عندهم حتى يروا الهلال كرة أخرى، فيبتدئون حينئذ شهراً ثانيا، هكذا كانت العرب تعمل في حساب شهورها.(٦٥)

ولعل من الوعي التاريخي عند العرب في الجاهلية تسميتها أيامها وشهورها، وفي ضبط أوقاتها ومقاديرها وبداياتها ونهاياتها ووسطها بما يكون فيها من حوادثهم وشؤونهم لون من ألوان الثقافة التاريخية، فأسماء الأيام في الجاهلية السبت: شيار، والأحد: أول، والأثنين: أهون وأوهد، والثلاثاء: جبار، والأربعاء: دبار، والخميس: مؤنس، والجمعة: عروبة.(٦٦) ولعل تسميتهم الأحد بالأول دليل على أنه كان أول الأسبوع عندهم، وهذا ربما كان أثراً من آثار اتصالهم بأهل الكتاب وأخذهم عنهم. قال الشاعر:

أُرَجِّي أَنْ أَعِيْشَ وَأَنَّ يَوْمِي ... بِأَوَّلَ أَوْ بِأَهْوَنَ أَوْ جُبَارِ
أَوِ التَّالِي دُبَارَ، فَإِنْ يَفُتْنِي ... فَمُؤْنِسَ أَوْ عَرُوْبَةَ أَوْ شِيَارِ(٦٧)

وقد نسب بعضهم أسماء الأيام هذه إلى العرب العاربة من بني قحطان وجرهم

---

(٦٥) ابن الأجدابي، *الأزمنة والأنواء*، ص ص ٣٥ - ٣٦.

(٦٦) جلال الدين السيوطي، *المزهر في علوم اللغة وأنوعها*، بعناية محمد أحمد جاد المولى وآخرين (بيروت: دار الفكر، د. ت.)، جـ١، ص ص ٢١٩ - ٤٥٩؛ وأبوعلي بن المستنير قطرب، *الأزمنة وتلبية الجاهلية*، تحقيق حاتم الضامن، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٥م)، ص٣٦؛ وجواد علي، *المفصل في تاريخ العرب*، جـ٨، ص ص ٤٦ - ٤٦٨.

(٦٧) ابن منظور، *لسان العرب*، (جبر).

الأولى، وأن ما نطقت به العرب المستعربة من ولد إسماعيل، عليه السلام، وجرى عليه الاستعمال هو ما نعرفه اليوم من أسماء الأيام.[٦٨]

أما شهور العرب في الجاهلية: فالمحرم، وسمّي، المحرم، لأنه حُرّم فيه القتال. وصفر، كانوا يخرجون فيه إلى بلاد يقال لها الصّفريّة يمتارون منها. وقيل إن المحرم لم يعرف بهذا الاسم إلا في الإسلام، وإنما كان اسمه مع صفر الصفران، ثم سمّي أحدهما في الإسلام المحرم، فهناك صفر الأول وصفر الثاني، على غرار ربيع الأول وربيع الثاني، وجمادى الأولى وجمادى الثانية.[٦٩]

ومن شهورهم أيضا ربيع الأول والآخر لارتباع القوم والمقام. وجمادى الأولى والآخرة لجمود الماء فيهما، وقد يسميان شَيْبَان ومَلْحَان.[٧٠] ورجب لضرب من الفزع، ورجب هو الأصم، ويسمى منصل الأسنة، لأنه كانت تنزع فيه الأسنة للأمن والكف عن القتال. وأما شعبان، فلتشعب القبائل واعتزال بعضهم بعضا. ورمضان، لشدة الرمض فيه والحر. وذو القعدة، لقعودهم فيه لا يبرحون. وذو الحجة، لحجهم فيه. وقد قيل في تفسير هذه الأسماء غير هذا، وهو لا يبعد عنه كثيرا.[٧١]

---

(٦٨) أحمد بن علي القلقشندي، *صبح الأعشى في صناعة الإنشا*، شرح وتعليق محمد حسين شمس الدين، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، جـ٢، ص ص ٣٨٨ - ٣٩١.

(٦٩) انظر: السيوطي، *المزهر*، جـ١، ص ص ٣٠٠، ٣٠١.

(٧٠) شيبان لابيضاض الأرض بالثلج، كذلك ملحان مأخوذ من الملحة وهي البياض، قال هُبيرة بن أبي وهب المخزومي، وتروى لجنوب الهذلية:

وليلة من جمادى ذات أندية ... جربا جماديّة قد بّت أسريها
لا ينبح الكلب فيها غيرَ واحدةً ... من القريس وَلا تسري أفاعيها
أوقدتُ فيها لذي الضّرّاء جاحمةً ... كالبرق ذاكية الأركان أحميها

انظر: ابن هشام، *السيرة النبوية*، جـ٣، ص١٣٨.

(٧١) انظر: قطرب، *الأزمنة وتلبية الجاهلية*، ص ص ٣٧، ٣٨؛ والمرزوقي، *الأزمنة والأمكنة*، جـ١، ص ص ٢٧٦ - ٢٧٩؛ وابن قتيبة، *الأنواء في مواسم العرب*، ط١ (حيدر آباد: مطبعة دائرة المعارف، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م)، ص٢٧٩؛ وابن عبدربه الأندلسي، *العقد الفريد*، تحقيق محمد سعيد العريان (بيروت: دار الفكر، د.ت.)، جـ٧، ص٢٥٨؛ والبيروني، *الآثار الباقية*، ص٦٠؛ والقلقشندي، *صبح الأعشى*، جـ٢، ص ص ٤٠١، ٤٠٢؛ وأبوبكر بن عاصم الثقفي، *الأنواء والأزمنة ومعرفة أعيان الكواكب* (فرانكفورت: تصوير ونشر معهد تاريخ العلوم الدينية والإسلامية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ص ص ٣١، ٣٢؛ وجواد على، *المفصل*، جـ٨، ص ص ٤٥٧، ٤٥٨.

ولهذه الشهور أسماء أخرى ينسبها بعضهم إلى العرب العاربة، فكانوا يقولون في المحرم: المؤتَمر، وفي صفر: نَاجر، وفي ربيع الأول: خوّان، وفي ربيع الآخر: وَبْصَان، وفي جمادى الأولى: حَنِيْن، وفي جمادى الآخرة: رُبّى ورُبّة، وفي رجب: الأصم، وفي شعبان: عادل، وفي رمضان: ناتق، وفي شوال: وَعِل، وفي ذي القعدة: وَرْنَة، وفي ذي الحجة: بُرك.(٧٢)

وللأشهر عند الثموديين، كما ذكره بعض الإخباريين، أسماء أخرى، فهي موجب، ثم موجز، ثم مُلزم، ثم مصدر، ثم هوبر، ثم هوبل، ثم موهاء، ثم دبر، ثم دابر، ثم حيقل، ثم مُسْيل.(٧٣) على أن هناك من يذهب إلى عروبة أسماء الأشهر الشمسية المنسوبة في بعض المصادر إلى السريان،(٧٤) وهي نيسان، أيار، حزيران، تموز، آب، أيلول. . . إلخ، ويرى أنها عربية وليست سريانية، اعتمادا على بعض المخلفات الأثرية.(٧٥) هذا الرصد للأهلة والمطالع ووصف الأشهر وتسميتها بأسماء توافق ظروف البيئة وجغرافيتها هي في الحقيقة معلومات فلكية دقيقة ناتجة عن معرفة بالفلك في أدواره وأطواره ومنازله، ويمكن أن تصنّف في المعارف التاريخية التي حذقها العرب وضبطوا حسابها ومقاديرها ضبطا يدل على سعة في الأفق، ودقة في الملاحظة، ورحابة في الخبرات المكتسبة. ومن دلائل الوعي التاريخي للعرب نقوشهم المؤرخة المرقومة بحساب السنين والمضبوطة بشيء من حوادثهم وأمورهم، ومن أشهرها نقوش لهم بعضها يعود إلى القرن الثالث الميلادي وبعضها يعود إلى الرابع، وبعضها إلى الخامس،

---

(٧٢) انظر هذه الأسماء ومعانيها واشتقاقاتها مع اختلافات يسيرة أحيانا، عند المرزوقي، *الأزمنة والأمكنة*، جـ١، ص ص ٢٧٩ - ٢٨٣؛ والبيروني، *الآثار الباقية*، ص ص ٦٠ - ٦٢؛ والسيوطي، *المزهر*، جـ١، ص٢١٩؛ والقلقشندي، *صبح الأعشى*، جـ٢، ص ص ٤٠٥، ٤٠٦؛ وابن عصام، مخطوط *الأنواء والأزمنة*، ص ص ٣٢، ٣٣.

(٧٣) البيروني، *الآثار الباقية*، ص٦٣؛ وانظر مع اختلاف يسير: الألوسي، *بلوغ الأرب*، جـ٣، ص ص ٧٦ - ٨٠؛ والمرزوقي، *الأزمنة والأمكنة*، جـ١، ص٢٨٣؛ وجواد علي، المفصل، جـ٨، ص٤٥٧.

(٧٤) القلقشندي، *صبح الأعشى*، جـ٢، ص ص ٤١٨، ٤١٩.

(٧٥) سامي خماس الصقار، "الأسماء العربية للأشهر الشمسية،" *مجلة دارة الملك عبدالعزيز*، ع٣، س١٦ (١٤١١هـ)، ص ص ١٨١ - ١٩١.

وهي مشتملة ـ في جملتها ـ على الرقم التاريخي المرتبط بسقوط سلع .[٧٦] على أنني أترك العناية بالنقوش واشتمالها على شيء من دلائل الثقافة التاريخية لجهود المشتغلين في الآثار في الأقسام الأكاديمية المختلفة .

الثقافة التاريخية في نبذ من أشعار الجاهليين

إذا نظرنا في أشعار العرب الجاهليين فإننا سنضع أيدينا على نصوص جاء فيها ذكر الأنبياء والرسل وبعض الأمم الغابرة، وشيء من قصص أسطوري متصل بهذه الأمم يمكن أن يصنف في الثقافة التاريخية لعرب الجاهلية، لأنه يمثل إشارات إلى شخوص أو وقائع في ذمة التاريخ، ولم يشهدها الشاعر الجاهلي الذي ذكرها في شعره، بل هي مخزون تاريخي في ذهن الجماعة التي أخذتها عن طريق الرواية والسماع ـ على الأرجح ـ أو هي من مكتسبات الشاعر الثقافية عن طريق اتصاله بمن يمتلك مثل هذه الثقافة . والجدير بالملاحظة أن هذه الثقافة التاريخية أشهر ما تكون في أشعار الشعراء الذين ذكر الإخباريون أنهم رحلوا إلى الأمم المجاورة للعرب، واختلطوا بهم، وأخذوا عنهم شيئا من أخبارهم ومعارفهم، أو أولئك الذين طلبوا الدين، وقرأوا الكتب، ولم يكونوا على ما كانت عليه أقوامهم من العزلة والانكفاء على الوثنية الغالبة في المجتمع العربي قبل الإسلام . ولعل هذا يؤكد صحة أكثر النصوص المنسوبة إلى هؤلاء الشعراء الراحلين الظافرين بقدر من العلم والمعرفة، على أننا لا نبعد النجعة فننكر أن يكون قد لفق عليهم شيء من الشعر الذي يلائم ما كانوا عليه مما يخالف ما كانت عليه معظم العرب، كما هو الحال بالنسبة للشعر الجاهلي في جملته، ففيه منحول ملفق وفيه صحيح محقق، غير أن هؤلاء ـ فيما نرجح ـ قد ألموا بثقافة تاريخية ظاهرة واضحة هي ثمرة الانتقال والاختلاط والتواصل، قال لبيد بن ربيعة :[٧٧]

أخْبَرُ أخْبَارَ القرون التي مَضَتْ أدبّ، كأنيّ كُلما قُمْتُ رَاكِعُ

(٧٦) انظر : الأسد، *مصادر الشعر الجاهلي*، ص ص ٢٥ - ٣١؛ وجواد على، *المفصل*، جـ٨، ص ص ٢٣٨، ٢٣٩، ٤٣٧ .

(٧٧) شرح *ديوان لبيد بن ربيعة*، تحقيق إحسان عباس، ط٢ (الكويت : مطبعة الحكومة، ١٩٨٤م)، ص١٧١ .

وقال قسّ بن ساعدة الإيادي، في خطبة هي من أصح ما نسب إلى الجاهليين من الخطب وأوثقه: [٧٨] "يا معشر إياد، أين ثمود وعاد، وأين الآباء والأجداد؟ . "

الأنبياء والرسل

حفل الشعر الجاهلي بذكر عدد من الأنبياء والرسل، عليهم السلام، وذكر الأنبياء والرسل ثقافة تاريخية بمعنى الكلمة، لأنه ما من شاعر جاهلي ممن نستشهد بأشعارهم أدرك أحدا منهم، وإنما أخذ علمه بهم عن طريق اتصال ثقافي بأهل الكتاب أو رواية عمن اتصل بهم من العرب الجاهليين. وممن ذكر في الشعر العربي الجاهلي نوح، عليه السلام، وممن ذكره أمية بن أبي الصلت في قوله: [٧٩]

جَزَى اللَّهُ الأَجَلّ المَرْءَ نُوْحاً ... جَزَاء البرّ لَيْسَ له كذابُ
بِمَا حَمَلَتْ سَفِيْنَتُهُ وأَنْجَتْ ... غَدَاةَ أتاهمُ الموتُ القُلابُ
وَفِيْهَا مِنْ أُرُوْمَتِه عُرَاةٌ ... لَدَيْه، لا الظِّمَاءُ ولا السِّغَابُ
وَإِذْ هُمْ لَبُوْسَ لهم يَقِيْهِمْ ... وَإِذْ صَخْرُ السِّلاَمِ لهم رطَابُ [٨٠]
عَشِيَّةَ أَرْسَلَ الطُّوْفَانُ، تَجْرِى، ... وَافَاضَ المَاءُ لَيْسَ لَهُ جِرَابُ
عَلى أَمْوَاجِ أَخْضَرَ ذي حَبِيْك ... كأنَّ سُعَارَ زَاخِره الهِضَابُ
بأيَة قَامَ يَنْطِقُ كُلُّ شَيء ... وَخَانَ أَمَانَةَ الدِيْكِ الغُرَابُ
وَأَرْسَلَت الحَمَامَةُ بَعْدَ سَبْع ... تَدلُّ عَلَى المَهَالِك لا تَهَابُ [٨١]

(٧٨) الجاحظ، *البيان والتبيين*، تحقيق عبدالسلام هارون، ط٤ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م)، جـ١، ص٣٠٩.

(٧٩) *ديوان أمية بن أبي الصلت*، جمع وتحقيق عبدالحفيظ السطلي، ط٣ (دمشق: المطبعة التعاونية، د. ت.)، ص ص ٣٣٦ - ٣٣٨.

(٨٠) تزعم العرب أن الحجارة كانت رطبة لينة في قديم الدهر، وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق.

(٨١) في هذا إشارة إلى أسطورة لخصها الجاحظ بقوله: "وفي كثير من الروايات من أحاديث العرب أن الديك كان نديما للغراب، وأنهما شربا الخمر عند الخمار ولم يعطياه شيئا، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن حين شربا، ورهن الديك فخاس به، فبقي محبوسا، وأن نوحا (ص) حين بقي في اللّجة أياما بعث الغراب: فوقع على جيفة ولم يرجع، ثم بعث الحمامة لتنظر هل ترى في الأرض موضعا يكون للسفينة مرفأ، واستجعلت على نوح الطوق الذي في عنقها، " *الحيوان*، جـ٢، ص ص ٣٢٠، ٣٢١.

وقول أمية أيضا: (٨٢)

سَمِعَ اللَّهُ لابنِ آدمَ نُوْحٍ ... ربّنا ذُو الجَلال والإفْضَال
حينَ أوْفى بذي الحَمامة والنّا ... سُ جميعاً في فُلْكه كالعَيَال
حَابساً جَوْفَهُ عليه رَسُوْلاً ... منْ خفَاف الحَمَام كَالتمْثَال
فَرَشَاها عَلى الرّسالة طَوْقاً ... وخضاباً علامةً غَيْر بَال
فأتته بالصِّدْق لما رَشَاهَا ... وَبقطْف لمّا غدَا عثْكَال(٨٣)
فَهَي تجْري فيه وَتَجْتسرُ البَحْـ ... ـرَ بأقلاعها كَقَدْح المُغَالي
تَصْرخُ الطّيْرُ والبريّة فيها ... مَعْ قويّ السِّبَاع والأفْيَال
حيْنَ فيْها منْ كُلّ مَا عَاشَ زَوْجٌ ... بَيْن ظَهْري غَوَارب كَالجْبَال
وقول أمية أيضا: (٨٤)

تَجْري سَفينةُ نُوْح في جَوَانبه ... بكُل مَوْج مَعَ الأرْوَاح تَقْتَحمُ
مَشْحُونَةٌ وَدُخَانُ المَوْج يَرْفَعُها ... مَلأى وَقدْ صُرعَت منْ حَوْلها الأمَمُ
حتّى تَسَوّت عَلى الجُوديّ راسيَةً ... بكُل مَا استُودْعَتْ كَأنَّها أطُمُ(٨٥)
وقوله أيضا: (٨٦)

مُنجٍ ذي الخير من سفينة نُوحٍ ... يوم بادتْ لُبنان من أخْراها
فَارَ تنّوُرُه وجَاشَ بمَاءٍ ... طَمّ فوق الجَبال حتّى عَلاهَا
قيل للعبد: سرْ، فَسَارَ وباللّـ ... ـه على الهول سَيْرُها وسُرَاها
قيل فاهبطْ فقدَ تناهتْ بك الفُلْـ ... ـكُ على رأسِ شاهقٍ مُرْسَاها
وقوله أيضا: (٨٧)

---

(٨٢) *ديوان أمية*، ص ص ٤٣٩، ٤٤٠.

(٨٣) في الأبيات إشارة إلى أسطورة الحمامة مع نوح، عليه السلام، وقد أشرت إليها فيما تقدم.

(٨٤) *ديوان أمية*، ص ص ٤٦٤، ٤٦٥.

(٨٥) الجودي: جبل استقرت عليه سفينه نوح؛ وفي سورة هود: ﴿**واستوت على الجودي**﴾. والأطم: حصن بني بالحجارة.

(٨٦) *ديوان أمية*، ص ص ٥٢٤، ٥٢٥.

(٨٧) *ديوان أمية*، ص ص ٥٣٠، ٥٣١.

كرحمة نوح يَوْمَ حلّ بسبعة لشيعته كانوا جميعا ثمانيا[٨٨]
فلما استنار الله تنّورَ أرْضه ففارَ وكان الماءُ في الأرض ساحيا
ترقّع في جري كأنّ أطيطَهُ صريف محال يستعيد الدّواليا
على ظهر جَوْنٍ لم يعدّ لراكب صريف محال يستعيد الدّواليا
فصارت بها أيامهم ثم سبعة وست ليال دائبات غواطيا
تَشُقّ بهم تَهْوي بأحسن إمْرَة كَأنّ عليها هاديا ونُواتيَا
وكَانَ لها الجوديّ نهْياً وغَايَةً وأصْبَحَ عنه مَوْجُهُ مُتَراخيَا

ومن ذلك قول النابغة الجعدي، في قصيدة له قالها في الجاهلية، يذكر فيها نوحا، عليه السلام:[٨٩]

يَرْفَعُ بالقَار والحَديْد منَ الجَوْ ز طوَالا جُذُوْعُهَا عُمَمَا[٩٠]
نُوديَ قُمْ وَاركبْ بأهْلكَ إن اللهَ مُوْف للناس مَازَعَمَا

وممن ذكر نوحا، عليه السلام، عديّ بن زيد العبادي في قوله:[٩١]

أيْنَ أهْل الدِّيَار منْ قَوْم نُوْحٍ ثُمَّ عَادٌ منْ بَعْدهمْ وَثَمُوْدُ

ومن ذلك ما نسب إلى النابغة:[٩٢]

(٨٨) قال شارح الديوان: "الأعداد في البيت غامضة، ولاندري إذا كان فيها إشارة إلى آيات التوراة: (وقال الرب لنوح ادخل أنت وجميع بيتك إلى الفلك، لأني إياك رأيت بارا لدي في هذا الجبل من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكرا وأنثى، ومن البهائم التي ليست طاهرة اثنين . . .)، "سفر التكوين،" ٧: ١-٢. وإلا فقد يكون ذلك إشارة إلى شيء من الأساطير الشعبية حول قصة نوح.

(٨٩) *شعر النابغة الجعدي*، ص١٣٦.

(٩٠) جاء في *اللسان*، مادة (جيز): قال الجعدي، وذكر سفينة نوح، على نبينا وعليه الصلاة والسلام، فزعم أنها كانت من خشب الجوز، وإنما قال ذلك لصلابة خشب الجوز وجودته. وعمم: جمع عميم، كل ما اجتمع وكثر، ويقال للنبات إذا طال قد اعتم، وشيء عميم أي تام، والجمع عمم.

(٩١) *ديوان عدي بن زيد العبادي*، حققه وجمعه محمد جبار المعيبد (بغداد: دار الجمهورية، ١٩٦٥م)، ص١٢٢.

(٩٢) *ديوان النابغة الذبياني*، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، ط٢ (القاهرة: دار المعارف، د. ت.)، ص٢٢٢؛ وابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، جـ١، ص١٥٨؛ وأبوزيد القرشي، جمهرة *أشعار العرب*، تحقيق محمد على الهاشمي، ط١ (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، جـ١، ص١٩٣.

فَألفيْتُ الأمَانَةَ لَمْ تَخُنْهَا كَذَلِكَ كَانَ نُوحٌ لا يَخُوْنُ

وقد نص الجاحظ على أنه من منحول شعر النابغة،(٩٣) وذكر ابن سلام الجمحي أن أهل العلم أجمعوا أن النابغة لم يقل هذا.(٩٤)

أما إبراهيم الخليل، عليه السلام، فقد ذكر أيضا في شعر بعض الشعراء الجاهليين، منهم أمية بن أبي الصلت في أبيات يذكر فيها قصة إبراهيم مع ابنه الذبيح في صورة معبرة، قال:(٩٥)

وَلإبْرَاهِيمَ الموفّي بالنّذْ ر احْتِسَاباً وَحَامِلَ الأجْذَال(٩٦)
بكْرَهُ لَمْ يكُنْ لِيَصْبرَ عَنْهُ لَوْ رَآه في مَعْشَر أقْتَال(٩٧)
أبُنيّ إنّي نَذَرْتُكَ للّـ ـه شَحِيْطا فَاصْبرْ فَذَلكَ حَالي(٩٨)
فَأجَابَ الغُلامُ أنْ قَالَ فيْه كُلّ شَيء للّه غَيْرُ انتْحَال
أبتِ إنّني جَزَيْتُكَ باللّـ ـه تَقيّا به عَلى كُلّ حَال
فَاقْض مَا قَدْ نَذَرْتَ لله واكْفُفْ عَنْ دَمي أنْ يَمَسّهُ سِرْبَالي
وَاشْدُدِ الصَّفْدَ لا أحَيْدَ عَنِ السِّكّيْ ـن حَيْدَ الأسِير ذي الأغْلاَل

ومن ذلك قول أمية، حينما قتل زيد بن عمرو بن نفيل، وكان من الحنفاء في الجاهلية:(٩٩)

فَأصْبَحْتَ في دَار كَريمْ مُقَامُهَا تُعَلّلُ فيْهَا بالكَرَامَة لاهيَا
تُلاقي خَليْلَ الله فيْهَا ولَمْ تكُنْ منَ النّاس جَبّاراً إلى النّار هَادِيَا

(٩٣) الجاحظ، الحيوان، جـ٢، ص٢٤٦.
(٩٤) ابن سلام الجمحي، *طبقات فحول الشعراء*، جـ١، ص٦٠.
(٩٥) *ديوان أمية*، ص ص ٤٤٠ - ٤٤٢. والأبيات أشبه بنظم لرؤيا إبراهيم في ذبح ابنه، عليهما السلام، كما جاءت في كتب التفسير.
(٩٦) الأجذال: مفردها جِذل، وهو ما عظم من أصول الشجر، ثم كثر استعماله حتى صار لكل ما كثر وعظم.
(٩٧) الأقتال: مفردها قتل، وهو العدو.
(٩٨) شحيطا: ذبيحا، من شحطه يشحطه، أي ذبحه.
(٩٩) *ديوان أمية*، ص٥٤٣. وتنسب الأبيات في السيرة (جـ١، ص٢٤٧) لورقة بن نوفل.

وممن ذكر خليل الله إبراهيم زيد بن عمرو بن نفيل في قوله :(١٠٠)

عُـذْتُ بِمَـا عَـاذَ بِـهِ إبْراهِـمْ مُسْتقبِـلَ الكَعْبَـة ، وَهْـوَ قَائِـمْ
يَقُـولُ أنفِـي لَـكَ عَـان رَاغِـمْ مَهْمَـاَ تُجُشّمنِـي فَإنّـي جَـاشِـمْ

وممن ذكرهم شعراء الجاهلية إسماعيل ، عليه السلام ، وقد جاء ذكره عند الفند الزِّمَّاني الشاعر الجاهلي ، في قصيدته الرائية المشهورة ، وفيها يقول :(١٠١)

نَحْـنُ أوْلادُ مَعَـدّ ذي الحَصَى وَلَنَـا مِـنْ هَاجَـرَ المَجْدُ الكُبَـارُ
وَلَـدَتْ أكْـرَمَ مَـنْ شُـدّتْ بِـهِ عُقَـدُ الحَبْـوة قدْمـاً والإزَارُ
إنّ إسْمَـاعِيـلَ مَـنْ يفْخَـر بِـهِ يُلْـفَ فِـي دَار بِها حَلّ الفَخَـارُ

ورائية أخرى للأفوه الأودي ، وهو من كبار الشعراء القدماء في الجاهلية ، ذكر فيها جرهما وهاجر أم إسماعيل ، عليه السلام ، في قوله :(١٠٢)

ريّشَـتْ جُرْهم نبلاً فَرَمَـى جُرْهُمـاً مِنْهُـنّ فُـوْقٌ وغِـرَارُ
عَلّمُـوا الطّعْـن مَعَداً فِـي الكُلَـى وادّرَاع الـلّأم فالطّـرْفُ يَحَـارُ
وَرُكُـوبَ الخَيْـل تَعْـدُو المرَطَـى قَدْ عَلاهَا نَجَـدٌ فِيـه احْمِـرَارُ(١٠٣)
يَا بَنِـي هَـاجَـرَ سَـاءَتْ خُطّـةً أنْ تَرُوْمُـوا النّصْـفَ مِنّـا ونُجَارُ

قال الميمني : "ورائية (دوار) ـ ويريد بها رائية الأفوه ـ قال القتبي وغيره : من جيد شعر العرب ، ونهى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، عن إنشادها ، لما فيها من ذكر إسماعيل ، عليه السلام ، وادعى الجاحظ أن القصيدة مصنوعة ، وكأنه خرق الإجماع ."(١٠٤)

وما دام ورد ذكر جرهم في الأبيات ، وهي من الأمم القديمة التي امتد سلطانها ونفوذها إلى البيت الحرام ، وكانت منهم هاجر أم إسماعيل ، كما تشير إلى ذلك أبيات

---

(١٠٠) الأصفهاني ، *الأغاني* ، جـ٣ ، ص١٢٤ ؛ وابن هشام ، *السيرة النبوية* ، جـ١ ، ص٢٤٥ . قال ابن إسحق : وحدثت عن بعض أهل زيد بن عمرو بن نفيل أن زيدا كان إذا استقبل الكعبة داخل المسجد قالها .

(١٠١) الفند الزّماني ، " شعر الفند الزماني ، " *مجلة المورد العراقية* ، م٨ ، ع٣ (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) ، ص٢٩٣ .

(١٠٢) عبدالعزيز الميمني ، *الطرائف الأدبية* (بيروت : دار الكتب العلمية ، د . ت .) ، ص١٢ .

(١٠٣) المَرَطَى : سرعة العدو . والنّجد : العرق من عمل أو كرب أو غيره .

(١٠٤) الميمني ، *الطرائف الأدبية* ، ص٣ ؛ وانظر : الجاحظ ، *الحيوان* ، جـ٦ ، ص ص٢٨٠ ، ٢٨١ .

الفند وأبيات الأفوه المتقدمة، فإن من الشعراء الجاهليين من ذكر هذه الأمة أو القبيلة، ومنهم عبدالله بن الزبعرى الشاعر القرشي المكي، فقد قال في سياق الحديث عن غزو الحبشة مكة، وما أصابهم به الله من النقمة والعقوبة:

كَانَتْ بِهَا عَادٌ وجُرْهُمُ قَبْلَهُمْ وَالله منْ فَوْق العَبَاد مُقِيْمُهَا[١٠٥]

وقال أمية بن أبي الصلت في معرض حديثه عن مريم، عليها السلام، وقصتها مع الملك: [١٠٦]

فَقَالَ: أَلاَ لاَ تَجْزَعِي وَتُكَذّبِي مَلائكَةٌ منْ رَبّ عَاد وَجُرْهُم

وممن ذكر من الأنبياء في أشعار العرب الجاهليين داود، عليه السلام، وأكثر ذكره حين يذكرون دروعهم وآلة حربهم وإحكام صناعتها، وهو هاجس يخالج الشاعر الجاهلي المولع بذكر الحرب وعدتها، وكان داود أول من عمل الدروع ولبسها. [١٠٧]

قال أمية بن أبي الصلت: [١٠٨]

حَيّ دَاوُدَ وابْنَ عَادٍ وَمُوْسَى وَفُرَيْعٍ بُنْيَانُهُ بالثّقَال[١٠٩]

قَالَ: رَبّي إني دَعَوتكَ في الفَجْـ ـر فَأَصْلِحْ عَلَى يَدَيّ اعْتمَالي

إنَّني زَارِدُ الحَدِيْد عَلَى النّا سِ دُرُوْعاً سَوَابِغَ الأَذْيَال

وقال عبيد بن الأبرص: [١١٠]

وَطَلَبْتُ ذَا القَرْنين حَتَّى فَاتَنِي رَكْضاً وَكِدْتُ بِأَنْ أَرَى دَاوُدَا

وقال الأعشى: [١١١]

---

(١٠٥) ابن هشام، *السيرة النبوية*، جـ١، ص٥٩.

(١٠٦) *ديوان أمية*، ص٤٨٥.

(١٠٧) أبومنصور الثعالبي، *لطائف المعارف*، تحقيق إبراهيم الأبياري وحسن كامل الصيرفي (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د.ت.)، ص٨.

(١٠٨) *ديوان أمية*، ص ص ٤٤٤، ٤٤٥.

(١٠٩) ابن عاد: هو هود عليه السلام. وفُريع: لغة في فرعون، أو لعله ضرورة. والثقال: مفردها ثقيل، وهو إما نقيض الخفيف، أو كل شيء نفيس.

(١١٠) *ديوان عبيد بن الأبرص*، تحقيق وشرح حسين نصار (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م)، ص٦٢.

(١١١) *ديوان الأعشى الكبير*، تحقيق وشرح محمد محمد حسين (القاهرة: مكتبة الآداب، المطبعة النموذجية، ١٩٥٠م)، ص١١؛ والبغدادي، *الخزانة*، جـ٩، ص٥٧٠.

وَدُرُوعا مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ في الحَرْ ... بِ وَسُوْقاً يُحْمَلْنَ فَوْقَ الجِمَالِ

وقال طرفة بن العَبد: (١١٢)

وَهُمُ مَاهُمْ إِذَا مَا لَبِسُوا نَسْجَ دَاوُدَ لبأسٍ مُحتَضَرْ

وقال الحصين بن الحمام المري: (١١٣)

عَلَيْهِنّ فتيانٌ كَسَاهُمْ محُرّقٌ ... وكَانَ إِذَا يكْسُو أجَادَ وَأكْرَما

صَفَائحَ بُصْرى أخْلصَتَها قُيُونُهَا ... وَمُطّرِداً مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ مُبْهَمَا

وقال سلامة بن جندل: (١١٤)

لَبسوُا مِنَ المَاذيّ كُلَّ مُفَاضَةٍ ... كَالنّهْيِ يَوْمَ رياحه الرّقْرَاق(١١٥)

مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ وآلِ مُحَرِّقٍ ... غَالٍ غَرائبهُنَّ فِي الآفَاقِ

وقال سلامة أيضا: (١١٦)

مُدَاخَلَةٍ مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ سكّهَا ... كَحَبّ الجَنَى مِنْ أبْلمٍ مُتَفَلّقِ(١١٧)

وقال لبيد بن ربيعة: (١١٨)

وَنَزَعْنَ مِنْ دَاوُدَ أحْسَنَ صُنعه ... وَلَقَدْ يكُوْنُ بقُوّة وَنَعِيْمِ

صَنَعَ الحَدِيْدَ لحفْظِه أسْرَارَهُ ... لِيَنَال طُوْلَ العَيْشِ غَيْرَ مَرُوْمِ

---

(١١٢) *ديوان طرفة بن العبد بشرح الأعلم*، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال (دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م)، ص٦٤؛ والبغدادي، *الخزانة*، جـ٨، ص١٨٨.

(١١٣) المفضل الضبي، *المفضليات*، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون، ط٦ (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ص٦٦؛ والأصفهاني، *الأغاني*، جـ١٤، ص٨؛ وأبوتمام، *حماسة أبي تمام*، تحقيق عبدالله عسيلان (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٠١هـ)، جـ١، ص٢٢٣.

(١١٤) *ديوان سلامة بن جندل*، تحقيق فخرالدين قباوة، ط٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ص١٤٧.

(١١٥) الماذي: دروع بيض، وقيل: لينة. والنّهي: الغدير.

(١١٦) *ديوان سلامة بن جندل*، ص١٧٢.

(١١٧) الجَنَى: ما يجنى من الشجر. والأبلم: بالفتح، بقلة تخرج لها قرون ولها وريقة منتشرة كأنها ورق الجزر.

(١١٨) شرح *ديوان لبيد*، ص ص١٠٩، ١١٠.

وقال لبيد أيضا: (١١٩)

وَمَا نَسَجَتْ أسْرَادُ دَاوُدَ وابْنُهُ مُضَاعَفَةٌ مِنْ نَسْجِهِ إذْ يُقَابِلُ

وقال زهير بن أبي سلمى: (١٢٠)

وآخَرِيْنَ تَرَى المَاذِيَّ عُدَّتَهُمْ مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ أوْ مَا أوْرَثَتْ إرَمُ

وقال كعب بن زهير: (١٢١)

شُمُّ العَرَانِيْن أبطالٌ لُبُوْسُهُمُ مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ فِي الهَيْجَا سَرَابِيْلُ

وقال بشامة بن الغَدير: (١٢٢)

وَمِنْ نَسْجِ دَاوُدَ مَوْضُوْنَةٌ تَرَى للقَوَاضِبِ فِيهَا صَلِيْلا

وقال النابغة الذبياني: (١٢٣)

وكُلُّ صَمُوْتٍ نَثْلَةٍ تبّعيةٍ وَنَسْجُ سُلَيْمٍ كُلَّ قَضّاءَ ذَائِلِ (١٢٤)

وقال الأسود بن يعفر: (١٢٥)

وَدَعَا بِمُحْكَمَةٍ أمِيْنٍ سكّهَا مِنْ نَسْجِ دَاوُدٍ أبِي سَلاّمِ

---

(١١٩) *شرح ديوان لبيد*، ص٢٦٢.

(١٢٠) *ديوان زهير بن أبي سلمى* (بيروت: دار صادر، د.ت.)، ص٩٣.

(١٢١) ابن هشام، *السيرة النبوية*، جـ٤، ص١٥٦.

(١٢٢) المفضل الضبي، *المفضليات*، ص٥٩.

(١٢٣) *ديوان النابغة الذبياني*، ص١٤٦. وقوله: نسج سليم، أراد نسج سليمان، وأراد به داود، لأنه أول من عمل الدروع فنسبت إليه (*الديوان*، ص١٤٦؛ *واللسان* "سلم"). قلت: ولعل سليمان أخذ عن أبيه عمل الدروع كما يشير إلى ذلك بيت لبيد السالف، ولا وجه - فيما أرجح - لصرف الاسم إلى آخر غير مذكور، مع ما يؤيد المذكور من القرائن ويؤكده، ويؤيد ما أرجحه ما ذكره ابن بري من أنهم قالوا في سليمان، اسم النبي، صلى الله عليه وسلم، سليم وسلام، فغيروه ضرورة وأنشد لشاعر آخر:

مُضاعفةٌ تخيرها سُلَيمٌ كأنّ قتيرها حَدَقُ الجَرَادِ

قلت: ويؤكد ذلك ما قاله يزيد بن سنان بن حارثة:

عليّ دلاصٌ قد اختارها سُليم بن داود إذ يَصنعُ

(*ديوان النابغة*، ص٢٤٩).

(١٢٤) الصموت من الدروع: اللينة المتن، ليست خشنة فيسمع لها صوت. والنتلة: السابغة. والقضاء: الدروع الحديثة العمل. والذائل: الدرع الواسعة ذات الذيل.

(١٢٥) ابن منظور، *لسان العرب*، (سلم).

والحديث عن داود موصول بالحديث عن ابنه سليمان، عليهما السلام، كما في الأبيات السابقة، يضاف إليها ما قاله الأعشى في ذكر سليمان، وتسخير الجن يعملون له ما يشاء: (١٢٦)

لَوْ كَانَ شَيءٌ خَالِداً أَوْ مُعَمّراً ... لَكانَ سُلَيْمَانَ البَرِيءَ منَ الدَّهْرِ
وَسُخِّرَ منْ جِنّ الملائك تسْعَةٌ ... قِيَاماً لَدَيْهِ يَعْمَلُوْنَ بلا أجْرِ

ومن ذلك ما ينسب إلى ورقة بن نوفل: (١٢٧)

لَمْ تُغْنِ عَنْ هُرْمُزٍ يَوْماً خَزَائِنُهُ ... وَالخُلْدَ قَدْ حَاوَلَتْ عَادٌ فَمَا خَلَدُوا
وَلاَ سُلَيْمَانَ إِذْ تَجْرِي الرِّيَاحُ لَهُ ... والجِنّ والإِنْسُ فِيْمَا بَيْنَهَا تَرِدُ

وقول النابغة الذبياني: (١٢٨)

وَلاَ أَرَى فَاعِلاً فِي النَّاسِ يُشْبِهُهُ ... وَلا أُحَاشِي منَ الأَقْوَامِ منْ أَحَدِ
إِلاَّ سُلَيْمَانَ إِذْ قَالَ الإِلَهُ لَهُ ... قُمْ فِي البَرِيَّةِ فَاحْدُدْهَا عَنِ الفَنَدِ
وَخَيِّسِ الجِنّ إِنِّي قَدْ أَذِنْتُ لَهُمْ ... يَبْنُوْنَ تَدْمُرَ بالصَّفَّاحِ والعَمَدِ

أما هود، عليه السلام، فقد ذكره حسان بن ثابت، رضي الله عنه، في قوله: (١٢٩)

وَيَعْرُبَ يَنْمِيهِ لَقَحْطَانَ يَنْتَمِي ... لِهُوْدٍ نَبِيِّ اللهِ فَوْقَ الحَبَائِكِ

وقد ذكره أمية بن أبي الصلت في بيت سبق. (١٣٠)

أما لوط، عليه السلام، فذكره أمية بن أبي الصلت، حين قال: في قصته مع قومه: (١٣١)

---

(١٢٦) محمد بن القاسم الأنباري، *الأضداد*، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم (بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ص٣٣٥.

(١٢٧) البغدادي، *الخزانة*، جـ٣، ص٣٨٩؛ وابن رشيق القيرواني، *العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده*، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ط٥ (بيروت: دار الجيل، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، جـ١، ص٣٤.

(١٢٨) *ديوان النابغة الذبياني*، ص ص ٢٠، ٢١؛ والجاحظ، *الحيوان*، جـ٦، ص٢٢٣؛ وأبوزيد القرشي، *جمهرة أشعار العرب*، جـ١، ص ص ١٩٣، ١٩٤؛ والبغدادي، *الخزانة*، جـ٣، ص٤٠٥.

(١٢٩) *ديوان حسان بن ثابت*، تحقيق وليد عرفات (بيروت: دار صادر، ١٩٧٤م)، جـ١، ص١٨٢.

(١٣٠) انظر: *ديوان أمية*، ص٢٥.

(١٣١) *ديوان أمية*، ص ص ٥٢٢-٥٢٤. وهي من الشعر المتهم لقرب سياقها من سياق النص القرآني.

ثُمَّ لُوطاً أخَا سَدُوْمَ أتَاهَـــا إذْ أتَاهَا برُشْدِهَا وَهُداهَـــا
رَاوَدُوه عَنْ ضَيْفه ثُمَّ قَالُـــوا قَدْ نَهَيْناكَ أنْ تُقيْم قرَاهَـــا
عَرَضَ الشَّيْخُ عنْدَ ذَاكَ بَنَات كَظِبَاء بأجْرَع مَرْعَاهَـــا
غَضبَ القَوْمُ عنْدَ ذَاكَ وَقَالوا أيّها الشَّيْخُ خطّة نَأبَاهَـــا
أجْمَعَ القَوْمُ أمْرَهُمْ وَعَجُوْزُ خيّبَ اللهُ سَعْيَهَا وَلَحَاهَـــا
أرْسَلَ اللهُ عنْشدَ ذَاكَ عَذَاباً جَعَلَ الأرْضَ سُفْلَهَا أعْلاَهَا
وَرَمَاهَا بحَاصب ثُمّ طـــيْن ذي حُرُوف مُسَوّم إذْ رَمَاهَـا

أما موسى وهارون ويونس، عليهم السلام، فقد ذكرهم من الشعراء الجاهليين زيد ابن عمرو بن نفيل من الشعراء الحنفاء. وتنسب القصيدة لأمية بن أبي الصلت: (١٣٢)

وَأنْتَ الذي منْ فَضْل منّ وَرَحْمَة بَعَثْتَ إلى مُوْسَى رَسُـــولا مُنَاديَا
فَقَالَ: أعنّي يَاابنَ أمّي فَإنَّـــــنيَ كَثيْرٌ به يَا رَب صلْ لي جنَاحـــيَا
فَقُلتَ لهُ يَا اذْهَبْ وَهَارُوْنَ فَادْعُوَا إلى الله فرْعَوْنَ الذي كَانَ طاغيَـا
وَأنْتَ بفَضْل منْكَ نجّيْتَ يُوْنُســاً وَقَدْ بَاتَ في أضْعَاف حُوْت ليَاليَا
فَأنبتَ يَقْطيْناً عَلَيْه برحْمَـــــة منَ اللّه، لولا اللّهُ، أصْبَحَ ضَاوَيا

وذكر موسى أبو طالب أيضا في شعر له قاله في الشِّعْب: (١٣٣)

ألَمْ تَعْلمُوا أنّا وَجَـدْنَا مُحَمـداً نَبيّاً كَمُوْسَى خُطّ في أوّل الكُتُب

وذكر موسى أمية بن أبي الصلت في بيت سبق: (١٣٤)

أما مريم وعيسى، عليهما السلام، فقد جاء ذكر لهما في شعر أمية بن أبي الصلت، في قصيدة له ميمية، منها قوله: (١٣٥)

وَفِي دِيْنكُمْ مِنْ رَبّ مَرْيم آيةٌ مُنبّئة، والعَبْد عيْسَى بن مَرْيَم

(١٣٢) *ديوان أمية*، ص ص ٥٣٩، ٥٤١؛ وابن هشام، *السيرة النبوية*، جـ١، ص٢٤٣.
(١٣٣) البغدادي، *الخزانة*، جـ٢، ص٧٦.
(١٣٤) انظر: *ديوان أمية*، ص٢٥.
(١٣٥) *ديوان أمية*، ص ص ٤٨٤، ٤٨٧؛ والقصيدة موضع اتهام لشبه أسلوبها وسياقها بالأساليب القرآنية التي جاءت فيها قصة مريم في سورة آل عمران وسورة مريم.

الأمم والملوك في ذمة التاريخ

علم الشعراء الجاهليون عن الأمم القديمة وملوكها أثارة من علم. وأدركوا من أخبارها طرفا، فلا نزال نظفر من ذلك بشيء حين نقرأ الشعر الجاهلي، وإن يكن غير غزير ولا وافر، ولكنه ـ على كل حال ـ ومضات دالة على ثقافة تاريخية وعلى وعي تاريخي لدى بعض شعراء العرب في جاهليتهم. وحين ساق الجاحظ قول أبي الطّمحان القيني:

أَمْسَتْ بَنُو القَيْن أفْرَاقاً مُوزّعَةً كَأَنّهُمْ منْ بَقَايا حَيّ لُقْمَان

قال: "وقد ذكرت العرب هذه الأمم البائدة والقرون السالفة، مثل جرهم وجاسم ووبار وعملاق وأميم وطسم وجديس ولقمان."(١٣٦)

ومن الأمم المذكورة في أشعار الجاهليين قوم عاد وإرم. فالنابغة الذبياني حين يمدح ملوك غسان يصفهم بالحلم، وقد وصف الناس بالحلم عادا، قال النابغة:(١٣٧)

أحْلامُ عَادٍ وَأَجْسَـاد مُطهّرةٌ منَ المَعَقّة والآفـات والأثَم

وكما وصفوا بالأحلام والنهى وصفوا بالصبر والجلد عند امرئ القيس في قوله:(١٣٨)

فَإنَّكُمُ خيَارُ النّاس قدْمـاً وَأجْلدُهُمْ رجَالاً بَعْدَ عَـاد

وهذا عبيد بن الأبرص حين خيره المنذر بن امرئ القيس اللخمي بين ثلاث طرائق للقتل ـ وكان عزم على قتله ـ قال عبيد: ثلاث خصال كسحابات عاد، وأنشأ يقول:(١٣٩)

وَخَيّرَني ذُو البُؤْس في يوم بُؤْسه خصَـالاً أرَى في كُلّهَا المَوْتَ قَدْ بَرَقْ
كَمَـا خُيّرتْ عَادٌ منَ الدّهْر مَرّةً سَحَائبَ ما فيها لذي خيرَة أَنَقْ(١٤٠)

ولقيط بن يعمر الإيادي ينذر قومه غزو كسرى إياهم فيقول:(١٤١)

---

(١٣٦) الجاحظ، *البيان والتبيين*، جـ١، ص١٨٧.

(١٣٧) *ديوان النابغة الذبياني*، ص١٠١؛ والجاحظ، *البرصان والعرجان والعميان والحولان*، تحقيق عبدالسلام هارون (بغداد: دار الرشيد، ١٩٨٢م)، ص٣٢١.

(١٣٨) *ديوان امرئ القيس*، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، ط٤ (القاهرة: دار المعارف، د. ت.)، ص٢٩٠.

(١٣٩) *ديوان عبيد بن الأبرص*، ص٨٨؛ والأصفهاني، *الأغاني*، جـ٢٢، ص٨١؛ والبغدادي، *الخزانة*، جـ٢، ص ص ٢١٨، ٢١٩.

(١٤٠) الأنق: الإعجاب بالشيء أو الفرح والسرور. انظر: *اللسان*، (أنق).

(١٤١) ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، جـ١، ص٢٠٠؛ والآمدي، *المؤتلف والمختلف*، ملحق بمعجم *الشعراء*، تصحيح وتعليق كرنكو (القاهرة: مكتبة القدسي، ١٣٥٤هـ)، ص١٧٥.

عَلَى حَنَق أتَيْناكُمْ فَهَـــذَا أوَانُ هَلاكِكُمْ كَهَلاكِ عَـــادِ

ومنه أيضا قول مُهلهل بن ربيعة: (١٤٢)

فَلَقَد أصْبَحَتْ جَمَائِعُ بَكْـــرٍ مِثْلَ عَادٍ إذ مُزِّقَتْ فِي الرِّمَـالِ

ولبيد بن ربيعة يقول: (١٤٣)

نحُلُّ بلاداً كُلُّهَا حلّ قَبْلَـــنا ونَرْجُو الفَلاحَ بَعْدَ عَاد وَحِمْيَر

وقال البراء بن قيس الكندي يذكر يوم الكُلاب الثاني، وكانَ من أيامَ العرب في الجاهلية: (١٤٤)

قَتَلتنَا تَمِيمُ يَوماً جَديـــــداً قتْلَ عَاد، وَذَاكَ يَوْمُ الكُـــلاب

وقال مالك بن خالد الهُذلي يرد على مالك بن عوف النّصري في يوم البوباة، حين غزا مالك هذيلا: (١٤٥)

أَلَمْ تَرَ أنّا أهْلُ سَوْدَاءَ جَوْنَة وَأهْلُ حجَاب ذي حجَاز وَمُوْقَر

به قَاتَلَتْ آبَاؤُنا قَبْلَ مَا تَرَىً مُلُوْكَ بَنِي عَادً وَأقْوَالَ حـــمْيَر

وقال ورقة بن نوفل، وتروى لعمر بن الخطاب، رضي اللّه عنه: (١٤٦)

لَمْ تُغنِ عَنْ هُرْمُزٍ يَوْماً خَزَائِنُهُ والخُلدَ قَدْ حَاوَلتْ عَادٌ فَمَا خَلَدُوا

وفي قول حسان، ذكر لعاد في انتساب اليمن إليهم: (١٤٧)

يَمَانُوْنَ عَادِيّونَ لَمْ يَلتبِسْ بنَـــا مَنَاسِبُ شَابَتْ منْ أوَلَى وَأوْلئك

وقال سويد بن أبي كاهل اليشكري في يتيمته، ولعله في وصفَ الكراهية والبغضاء: (١٤٨)

---

(١٤٢) حسن السندوبي، *أخبار المراقسة وأشعارهم في الجاهلية وصدر الإسلام*، ط٣ (القاهرة: مطبعة الاستقامة، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م)، ص٢٨٧.

(١٤٣) *شرح ديوان لبيد*، ص٥٧؛ وأبوزيد القرشي، *جمهرة أشعار العرب*، جـ١، ص١٢٦.

(١٤٤) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ١٦، ص٣٣٩.

(١٤٥) أبوسعيد السكري، *شرح أشعار الهذليين*، حققه عبدالستار أحمد فراج، راجعه محمود محمد شاكر (القاهرة: مكتبة دار العروبة، مطبعة المدني، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م)، جـ١، ص٤٥٤.

(١٤٦) ابن رشيق، *العمدة*، جـ١، ص٣٤؛ والبغدادي، *الخزانة*، جـ٣، ص٣٨٩.

(١٤٧) *ديوان حسان*، جـ١، ص١٨٢.

(١٤٨) الضبي، *المفضليات*، ص٢٠٠.

غَلَبَتْ عَاداً وَمَنْ بَعَـــــدُهمُ فَأَبَتْ بَعْدُ فَلَيْسَـــتْ تتّضِعْ

وقال بشامة بن الغدير :(١٤٩)

منْ عَهْد عَاد كَانَ معروفاً لنـا أسْـرُ المُلوك وَقَتْلهُا وقتَالهُـا

وقال متمّم بن نويرة، وتُروى لأخيه مالك :(١٥٠)

ولَقَدْ عَلمْت وَلا مَحَالةَ أنّني للحَادثات فَهَلْ تَرَيْني أجْزَعُ
أفَنيْنَ عَاداً ثُمّ آلَ مُحَـــرّق فتَركْنُهُمْ بَلَداً وَمَا قَدْ جَمّعُوا

وقال عمْرو بن معد يكرب الزّبيدي :(١٥١)

وَسَيف لابن ذي قَيْفَانَ عنْدي تَخَيّرَهُ الفَتَى منْ قَوْم عَـــــاد

ونسبة السلاح في قِدمه وعتاقته إلى عاد أمر ظاهر في الشعر الجاهلي والإسلامي، ومنه قول راشد بن شهاب اليشكري، وهو شاعر جاهلي :(١٥٢)

لعَاديَّة من السّلاح اسْتَعُرْتُهَا وكَانَ بكُمْ فَقْرٌ إلى الغَدْر أوْ عَدَمْ

ومن أمثال العرب :(١٥٣) "هو أكفر من حمارَ" و "أخلى من جوف حمار" قيل حمار : رجل من عاد، وجوفه واد له طويل عريض، لم يكن ببلاد العرب أخصب منه، فخرج بنوه يتصيدون فأصابتهم صاعقة فهلكوا، فكفر وقال : لا أعبد من فعل هذا ببني، ودعا قومه إلى الكفر فمن عصاه قتله، فأهلكه الله تعالى وأخرب واديه، فضربت العرب المثل به في الخراب والخلاء، قال الأفْوه الأودي :

ولَشُؤْم البَغْي والغُشْم قَديمْاً قَدْ خَلا جَوْفٌ ولَمْ يَبْقَ حمَارْ

ومع أن إرما من عاد، إلا أن الشعراء يذكرونهما ـ في مواضع ـ وكأنهما أمتان مختلفتان،

(١٤٩) *حماسة أبي تمام*، جـ١، ص٢٢٥.
(١٥٠) الضبي، *المفضليات*، ص٥٣.
(١٥١) ابن دريد، *الاشتقاق*، ص٥٣١.
(١٥٢) الضبي، *المفضليات*، ص ٣٠٩.
(١٥٣) الثعالبي، *ثمار القلوب*، ص٨٤؛ والميداني، مجمع *الأمثال*، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم (القاهرة: مكتبة عيسى البابي الحلبي، د.ت.)، جـ١، ص٤٥٣؛ جـ٣، ص ص ٦٩، ٧٠. وأرجّح أن هذا من القصص التفسيري لأمثال العرب، فلا نطمئن دائما إلى صحته والوثوق به، ولكنه محتمل للصحة والتلفيق، فلا يبنى عليه حكم، ولا يستند إليه في قضة علمية، وإنما يستأنس به وحسب.

كما يظهر في بعض النصوص الشعرية، ومن ذلك قول عَوف بن الغامديّة، وهو شاعر جاهلي: (١٥٤)

إنَّ دَوْســـــاً شَرّ عَادٍ وإرَمْ رُسْـــــخُ أدْبَارٍ كَأعْجَازِ القَزَمْ (١٥٥)

وقول أفنون التّغلبي: (١٥٦)

لَوْ أنّني كُنْتُ منْ عَاد ومَـــنْ إرَم رَبَيْتُ فيْهِمْ، ولَقْمَان ومَـــنْ جَدَن
لَمَا فَدَوا بأخيْهِمْ منْ مُهَـــــوّلة أخَا السَّكُوْن ولا حَارُوا عن السّنَنَ

وقول لبيد بن ربيعة، وتنسب لزهير بن أبي سلمى: (١٥٧)

وَإنَّا قَـــدْ يُرَى مَا نَحْنُ فيْـــه وَنُسْحَرُ (١٥٨) بالشّرَاب وبالطّعَام
كَمَا سُحرَتْ به إرَمٌ وَعَـــادٌ فَأضْحَوا مثْلَ أحْـلامِ النّيَـــامِ

وقول لبيد أيضا: (١٥٩)

ولَقَدْ بَلَتْ إرَمٌ وعادٌ كَيْـــدَهُ ولَقَـدْ بَلَتْـه بَعْـدَ ذاكَ ثَمُـوْدُ

وقول عدي بن زيد: (١٦٠)

إنَّ الأسَى قبلنا جَمٌّ ونَعْلَمُـــهُ فيْمَا أزيْلَ منَ الأجْـدَاد وَالأمَم
منهُم رَأيْتَ عَياناً أوْ تُحدّثُـــهُ وَمَا تُنبّأ عَـنْ عَـادٌ وعـــن إرَم

وقول محرز بن المكعبر: (١٦١)

نجّى ابنَ نُعْمَانَ عَوفاً منْ أسنّتنا إيْغَالُهُ الرّكْضَ لَمّا شَالَت الجذَمُ
حتّى انتهوا لمياه الجَوْف ظَاهرَةً مَالَـــمْ تَسرْ قَبلهم عَادٌ ولا إرَم

أما إرم- وهي من عاد كما قدمنا- فقد ذكرت في أشعار الشعراء الجاهليين مفردة عن عاد، كما في قول لبيد بن ربيعة: (١٦٢)

---

(١٥٤) المرزباني، *معجم الشعراء*، ص٢٧٧.
(١٥٥) القزم: صغار الغنم.
(١٥٦) الضبي، *المفضليات*، ص٢٦٢؛ والجاحظ، *البيان والتبيين*، جـ١، ص١٩٠.
(١٥٧) *شرح ديوان لبيد*، ص٢٠٩؛ و*ديوان زهير*، ص١٠٠.
(١٥٨) نسحر: نعلل.
(١٥٩) *شرح ديوان لبيد*، ص٣٤.
(١٦٠) *ديوان عدي بن زيد*، ص١٧٠.
(١٦١) *حماسة أبي تمام*، جـ١، ص٢٩٦.
(١٦٢) *شرح ديوان لبيد*، ص١٠٨.

أوَ لمْ تَرَيْ أنّ الحَوادثَ أهْلكَتْ إرَماً ورَامَتْ حِمْيَراً بعَظِيـــمِ

وقول زهير في بيت سبق: (١٦٣)

وآخَرِيْنَ تَرَى المَاذيّ عُدّتَهُـــمْ منْ نَسْـــجِ دَاوُدَ أو ما أوْرَثَتْ إرَمُ

وقول عمرو بن معد يكرب، وقد حمل على ربيعة بن مكدّم: (١٦٤)

مَنْ يلقْني يُوْد كَمَـا أوْدَتْ إرَمْ أتْرُكُهُ لَحْماً عَـلى ظَهْـرِ وَضَمْ

وقول راشد بن شهاب اليشكري: (١٦٥)

أشَمّ طُوالاً يدحضُ الطّيْرَ دُونَـهُ لَهُ جَنْدلٌ مِمَّا أعَـــدّتْ لَـهُ إرَمْ

وقول علباء بن أرقم اليشكري: (١٦٦)

وَقَالَ صَحَابي إنك اليومَ كائنٌ عَلَيْنَا كَمَّا عَفّى قُدَارٌ عَلَى إرَمْ

وقول الأغلب العجلي: (١٦٧)

جَاؤُوا بزَوْرَيْهم وجئنا بالأصَمّ شَيْخ لنَا قد كَانَ منْ عَهْد إرَمْ

وثمود أيضا من الأمم القديمة التي ورد لها ذكر في أشعار الجاهليين، فهذا عامر بن الظّرب العدواني، وهو من حكماء العرب وحكامهم في الجاهلية، يقول: (١٦٨)

قَالَتْ إيادٌ قد رأينا نَسَبَـــا فـي ابنَيْ نزَار ورَأيْنَا غَلَبَـا
سيْرِى إيادُ قد رأينا عَجَبَـا لا أصْلُكُمْ منّا فَسَامِى الطّلبَا
دَارَ ثَمُود إذْ رأيت السَّبَبَا

وقال امرؤ القيس بن حُجر: (١٦٩)

---

(١٦٣) انظر: *ديوان زهير*، ص٢٧.

(١٦٤) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ١٦، ص٧٥. والوضم: كل شيء يوضع عليه اللحم من خشب أو بارية يوقى به من الأرض.

(١٦٥) الضبي، *المفضليات*، ص٣٠٩.

(١٦٦) الأصمعي، *الأصمعيات*، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون، ط٥ (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ص١٥٩. وقدار بن سالف هو الذي يقال له أحمر ثمود، عاقر ناقة صالح (*اللسان*، قدر).

(١٦٧) ابن عبدربه، *العقد الفريد*، جـ٦، ص٥٤.

(١٦٨) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٤، ص٣٠٥.

(١٦٩) *ديوان امرئ القيس*، ص٢٠٨؛ والأصفهاني، *الأغاني*، جـ١٢، ص٢١٠.

كَلاّ يمينَ الإله يَجْمَعُنَـــا شَيءٌ وأخْوَالنَا بني جُشَمَا
حَتّى تزورَ السّباعُ ملحَمَةً كَأنّها من ثَمُودَ أو إرَمَـــا

وقال صخر الغيّ الهذلي يرثي ابنه تليدا: (١٧٠)

فَقُلْتُ لهَا فَأمّا سَـاقُ حرّ فَبَانَ مع الأوائل من ثَمُـود
وقالتْ لنْ تَرَى أبداً تليداً بعينكَ آخرَ الدّهْر الجَديـْدَ

وقال المُحرز بن المُكعبر الضّبي: (١٧١)

فَرِيْقَان منهم من أتَى البَحْرُ دُونه وَمُود كَمَا أوْدَتْ ثَمُودٌ وتُبّعُ

وفي قصة شقي ثمود الذي عقر الناقة قال حسان بن ثابت، في قصيدة له جاهلية: (١٧٢)

يكُـوْنُ إذَا بَثّ الهجَـاءَ لقومـه ولاحَ شَهابٌ من سَنَا البـرق واقدُ
كَأشْقَى ثَمُود إذْ تَعَاطى لحَيْنـه خَصيْلَةَ أمّ السّقْب، والسَّقْبُ واردُ
فَوَلّى فَأوْفَى عَاقلاً رأسَ صَخْرَة نَمَى فَرْعُها واشتـدَّ منْهَـا القَوَاعـدُ
فَقَالَ: ألافَاسْتَمتعُوا في دَياركُمْ فَقَد جَاءَكُـمْ ذكْـرُ لكـمْ ومَوَاعـدُ
ثَلاَثَةُ أيّام مـنَ الدّهْـر لمْ يكُـنْ لهنَّ بتصـديق الـذي قَـالَ رائـدُ

وقال أمية بن أبي الصلت في شعر قصصي يذكر فيه قصة هؤلاء القوم وما كان من أمر عاقر الناقة: (١٧٣)

كَثَمـودَ التـي تَفَتّكَت الـدِّيْـ ـنَ عتّيا وأمّ سَـــقْب عَقيْرا
نَاقةٌ للإله تَسْرحُ فـــي الأر ض وتنتابُ حَوْلَ مَاء مَديـْرَا
فأتاها أحَيْمرٌ كَأخي السّـــهْ م بعَضْب فقال: كُوني عَقيْرا
فأبَتّ العُرقوبَ والسّاقَ منهـا ومَضَى في صَميمه مكْسُـوْرَا

إلخ...

(١٧٠) السكري، شرح *أشعار الهذليين*، جـ١، ص٢٩٣.

(١٧١) أبوعبيدة معمر بن المثنى، *النقائض*، نشره أنتوني بيفان (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٠٧ - ١٩٠٨م)، جـ١، ص١٠٢٢.

(١٧٢) *ديوان حسان*، جـ١، ص٥٠.

(١٧٣) *ديوان أمية*، ص ص ٤٠٥، ٤٠٦ ومع أن هذه القصيدة من مشهور شعر أمية الذي يروى له إلا أن بعض أبياتها من الشعر المتهم الذي يتفق مع النسق القرآني، كما في قصة ثمود، وما كان من أمر عاقر الناقة فيهم.

وقال الأفوه الأودي: (١٧٤)

كَانُوا كَمثْل لُقَيْم في عَشْيرَته إذْ أهْلكَتْ بالذي قَد قدّمَتْ عَادُ
أوْ بَعَدَهُ كَقُدَار حيْنَ تَابَعَــه على الغَوايَة أقْوامٌ فقد بَــادُوا

وقال علقمة بن عبدة الفحل، في إشارة إلى قصة ثمود: (١٧٥)

رَغَا فوقهم سَقْبُ السّمَاء فَدَاحضُ بشــكّته لم يُسْــتَلَبْ وَسَلِيْب

وقال أبوخراش الهذلي، وتروى لأبي جندب الهذلي: (١٧٦)

فَمَنْ كان يرجو الصّلْحَ مني فإنه كَأحْمَر عَاد أو كُليب بن وائل

وأراد بأحمر عاد، أحمر ثمود، وهو عاقر الناقة، كما قال زهير في صفة الحرب: (١٧٧)

فتُنْتجْ لكُمْ غلمَانَ أشْأمَ، كُلّهُمْ كَأحْمَرَ عَاد ثُم تُرضعْ فَتَفْطم

قال الأصمعي: أخطأ زهير في هذا، لأن عاقر الناقة ليس من عاد، وإنما هو من ثمود. وقال المبرد: لا غلط، لأن ثمود يقال لها عاد الآخرة، ويقال لقوم هود عاد الأولى، والدليل على هذا قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾(١٧٨). وقال الأعلم الشنتمري: لاغلط، لكنه جعل عادا مكان ثمود اتساعاً ومجازاً مع تفاوت ما بين عاد وثمود في الزمن. (١٧٩)

---

(١٧٤) الميمني، *الطرائف الأدبية*، ص٩. وقد سبق أن قلت إن قدارا هذا هو قدار بن سالف الذي يقال له أحمر ثمود، وهو عاقر الناقة.

(١٧٥) *ديوان علقمة الفحل*، حققه لطفي الصقال ودرية الخطيب، ط١ (حلب: دار الكتاب العربي، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م)، ص٤٦؛ وأبوالعباس المبرد، *الكامل*، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم والسيد شحاتة (القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٦م)، جـ١، ص٥.

(١٧٦) السكري، *شرح أشعار الهذليين*، جـ١، ص٣٤٦؛ والأصفهاني، *الأغاني*، جـ٢١، ص٢٢٠.

(١٧٧) *ديوان زهير*، ص٨٢؛ وأبوزيد القرشي، *جمهرة أشعار العرب*، جـ١، ص٢٩٠؛ والبغدادي، *الخزانة*، جـ٣، ص١٣.

(١٧٨) سورة النجم، الآية ٥٠، والآية ٥١.

(١٧٩) انظر: ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، جـ١، ص١١١؛ وابن رشيق، *العمدة*، جـ٢، ص٢٤٦؛ وأبوزيد القرشي، *جمهرة أشعار العرب*، جـ١، ص٢٩٠؛ والبغدادي، *الخزانة*، جـ٣، ص١٣.

ولقمان عاد، وهو معمر جاهلي قديم، كان من ملوك حمير في اليمن، قيل هو الذي لقب بالرائش الأكبر، وقيل هو الذي بعثته عاد ليستسقى لها بمكة، وكان مسكنه بمأرب، ودُفن بالأحقاف بجوار قبر هود، عليه السلام، قال الجاحظ: "وكانت العرب تعظّم شأن لقمان بن عاد الأكبر والأصغر لقيم بن لقمان في النباهة والقدر وفي العلم والحكم وفي اللسان والحلم، وهذان غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن على مايقول المفسرون."(١٨٠) وزعم أصحاب الأساطير والإخباريون أنه عاش عمر سبعة نسور، مبالغة في طول حياته.(١٨١) لقمان هذا ذكره شعراء العرب في الجاهلية في نصوص ليست قليلة، وذكرهم له دالّ على ثقافة تاريخية ووعي تاريخي، وممن ذكره من الشعراء عامر بن مالك أبوبراء، حين نهى عامر بن الطفيل أن ينافر علقمة بن علاثة في قوله:(١٨٢)

أكَلّفُ سَعْيَ لُقمانَ بن عَاد فَيَال أبَي شُـــرَيْحٍ مَا لَقيْتُ

وقال أفنون التغلبي في بيتين سبقا:(١٨٣)

لَوْ أنّني كُنْتُ من عَاد ومن إرَم رَبيْتُ فيهم ولقمـــان ومن جَـدَن
لَمَا فَـدَوا بأخيهـمْ منَ مُهَـوّلَةٍ أخا السّكون ولا حَارُوا عن السّنَن

وقال أبو الطّمحان القيني:(١٨٤)

أمْسَت بنو القَيْن أفَراقاً مُوزعةً كأنهمْ من بَقَايَا حَيّ لُقْمَـانِ

وقال لبيد بن ربيعة:(١٨٥)

وَقَوْمَ لُقْمانَ بنِ عَادٍ أخْشَعَا إذْ صَارَعُوهُ فأبَى أنْ يُصْرَعَا

---

(١٨٠) الجاحظ، *البيان والتبيين*، جـ١، ص١٨٤.

(١٨١) انظر: الثعالبي، *ثمار القلوب*، ص١٢٤؛ وابن رشيق، *العمدة*، جـ٢، ص٢٢٥؛ وابن سعيد، *نشوة الطرب*، جـ١، ص ص ١٠٦ - ١٠٩؛ وخيرالدين الزركلي، *الأعلام* (بيروت: دار العلم للملايين، د. ت.)، جـ٥، ص٢٤٣.

(١٨٢) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ١٦، ص٢٨٨.

(١٨٣) انظر: *ديوان التغلبي*، ص٣٢.

(١٨٤) تقدم في بداية الحديث عن ذكر الأم الغابرة.

(١٨٥) *شرح ديوان لبيد*، ص٣٣٧.

وقال يزيد بن الصّعق الكلابي، وتنسب لأبي المهوش الأسدي: (١٨٦)

إذَا مَا مَاتَ مَيْتٌ من تميم فَسَرّك أنْ يَعيشَ فَجيءْ بزَاد
بخبز أو بتمر أو بلحـــم أو الشيء المُلفّف في البجَاد
تَراه يُنقّب البطحاءَ حَوْلا ليأكلَ رأسَ لُقمانَ بن عَـاد

وقال الأفوه الأودي: (١٨٧)

كانوا كمثل لُقَيم في عَشـــيرته إذ أُهلكتْ بالذي قد قَدّمَتْ عَادُ

وقالت هُزيلة بنت بكر: (١٨٨)

بَعَثَتْ عَادٌ لُقيما وَأَبَا سَـــعْد مُرْيدا

وقد زعم الإخباريون ـ كما قدّمت ـ أن لقمان قد عمر سبعة نسور، وكان لُبد أطولها عمرا، فضربت العرب به المثل، فقالوا: طال الأمد على لُبد. (١٨٩) وقد ذكر الشعراء الجاهليون لقمان وأنسُرَه، وما أعطي من فسحة العمر وطول الحياة، فقال النابغة الذبياني: (١٩٠)

أمْسَتْ خَلاءً وأمْسَى أهْلُهَا احْتَمَلوُا أخْنَى عليها الذي أخْنَى عَلَى لُبَدِ

وقال لبيد بن ربيعة: (١٩١)

---

(١٨٦) المرزباني، *معجم الشعراء*، ص٤٩٤؛ والجاحظ، *البيان والتبيين*، جـ٣، ص٣٢١؛ والجاحظ، *الحيوان*، جـ٣، ص ص ٦٦، ٦٧؛ والمبرد، *الكامل*، جـ١، ص١٧١.

(١٨٧) تقدم في ذكر ثمود، ص٣٥، ولقيم هو الأصغر بن لقمان الأكبر.

(١٨٨) الأنباري، *الأضداد*، ص٤٤.

(١٨٩) انظر: ابن دريد، *الاشتقاق*، ص٣٧؛ والثعالبي، *ثمار القلوب*، ص ص ٣٧٦، ٣٧٧؛ والميداني، *مجمع الأمثال*، جـ١، ص ص ٣٩٣، ٣٩٤؛ وأبوحاتم السجستاني، *المعمرون والوصايا*، تحقيق عبدالمنعم عامر (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦١م)، ص ص ٤، ٥.

(١٩٠) *ديوان النابغة الذبياني*، ص١٦؛ والجاحظ، *الحيوان*، جـ٦، ص٣٢٥؛ وابن قتيبة، *المعارف*، ص٦٢٧؛ والميداني، *مجمع الأمثال*، جـ١، ص٢٣٢؛ جـ٢، ص٢٨٠.

(١٩١) *شرح ديوان لبيد*، ص ص ٢٧٤، ٢٧٥؛ والجاحظ، *الحيوان*، جـ٦، ص٣٢٥؛ والميداني، *مجمع الأمثال*، جـ١، ص٤٢٩؛ جـ٢، ص٢٨١.

ولَقَدْ جَرَى لُبَدٌ فأدركَ جَرْيَهُ رَيْبُ المَنُوْنِ وكَانَ غير مُثَقّل
لَمّا رأى لبدُ النّسورَ تَطَايرتْ رَفَعَ القَوَادمَ كالفقير الأعْزَل
منْ تحْته لُقْمَانُ يرجو نَهْضَهُ ولَقَدْ يَرَى لقمانُ ألاّ يَأتَلي

وقال الأعشى: (١٩٢)

وَأنْتَ الذي ألهَيْتَ قَيْلاً بكَلْسه ولُقمانَ إذ خَيّرْتَ لقمانَ في العُمْر
لنَفسكَ أنْ تختارَ سَبْعَةَ أنْسُر إذا مَا مَضَى نَسرٌ خلوتَ إلى نَسْر
فَعُمّرَ حتى خَالَ أنّ نُسُوْرَهُ خُلُوْدٌ، وَهَل تبَقْى النفوسُ عَلَى الدّهْر؟

وقد ذكر الشعراء حكمة لقمان وحيلته ولسنه، قال المسيّب بن علس يمدح قيس بن معد يكرب الكندي: (١٩٣)

وَلأنْتَ أبيَنُ حيْنَ تنْطقُ منْ لُقمانَ لمّا عَيّ في الأمْرِ

وقال أعشى تميم يمدح نُبيه بن الحجاج السّهمي القرشي: (١٩٤)

ثَقفٌ كلقمانَ عَدْلٌ في حُكُومته سيفٌ إذا قَامَ وَسْطَ القَوْمِ مَسْلُوْلُ

وقال زبّان بن سيّار في شأن النابغة الذبياني: (١٩٥)

أقَامَ كَأنّ لقمانَ بنَ عَاد أشَارَ لهُ بحكمته مُشيْرُ

وقال أبوقيس بن الأسلت: (١٩٦)

وكَانَ البُخْتُريّ غداةَ جَمْع يُدَافُعُهمْ بلقمانَ الحكيْمِ

---

(١٩٢) الميداني، *مجمع الأمثال*، جـ٢، ص٢٨٠.

(١٩٣) شعر المسيب بن علس، ملحق بكتاب *الصبح المنير في شعر أبي بصير*...، شرح العباس ثعلب، تحقيق رودلف جاير (لندن: مطبعة آدلف هلزهوس، ١٩٢٧م)، ص٣٥٣؛ والجاحظ، *البيان والتبيين*، جـ١، ص١٨٩؛ والبغدادي، *الخزانة*، جـ٦، ص٣٢٦.

(١٩٤) مصعب الزبيري، *نسب قريش*، عناية ليفي بروفنسال (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ص٤٠٣؛ والأصفهاني، *الأغاني*، جـ١٧، ص٢٨١.

(١٩٥) الجاحظ، *البيان والتبيين*، جـ٣، ص٣٠٤؛ *والحيوان*، جـ٣، ص٤٤٧.

(١٩٦) الجاحظ، *البيان والتبيين*، جـ٣، ص٩٧ ولعله أراد أباالبختري العاص بن هاشم، وكان من ذوي الشرف والرئاسة في قريش.

وقالت ابنة وثيمة بن عثمان ترثي أباها : (١٩٧)

والدّافعَ الخَصْـــمَ الألَـ ـدّ إذَا تُفُوْضِحَ في الخُصُوْمه
بلسَان لقمانَ بن عَـــا دَ وَفَصْل خُطْبَتـه الحكيْمَـه
أجْمَتْهُمْ بعد التّـــدَا فُعِ والتّجَاذُبِ في الحُكُومْـه

وقال لبيد بن ربيعة : (١٩٨)

وَأَحْلَفَ قسّاً ليتني ولو أننـــي وَأعْيَا على لُقْمَانَ حُكْمَ التّـــدَبّر

وقال تأبط شرا : (١٩٩)

فَإنّك لو قَايَسْتَ باللّصْب حيلتي بلقمانَ لم يقْصُرْ بيَ الدّهر مَقْصَرُ

وَوُصفَ لقمان بالحذق في الميسر ، وأنه كان أضرب الناس بالقداح ، قال امرؤ القيس : (٢٠٠)

هُمُ أيسار لقمان بن عاد إذا ما أجمد النّاس القرْيسُ

وقال طرفة بن العبد : (٢٠١)

وَهُمُ أَيْسَارُ لقمانَ إذَا أغْلَت الشّتوة أبداءَ الجُزُرْ

وقد ارتبط اسم لقمان ببعض القصص ، ولعلها تدخل أحيانا في باب الأساطير ، غير أن ورود الإشارة إليها في أشعار بعض الشعراء الجاهليين دال على جانب من ثقافتهم التاريخية ، والأسطورة لون من ألوان التاريخ يستقر في ذاكرة الشعوب فتستعيده وتتكئ عليه في أحاديثها ومسامراتها . قال الحطيئة يهجو الزبرقان بن بدر ويمدح بغيضا : (٢٠٢)

وَهَلْ كُنْتُ إلاّ نائياً إذْ دَعَوْتُمُ مُنَادَى عُبَيْدانَ الُمحَلاّ باقرُه

---

(١٩٧) الجاحظ ، *البيان والتبيين* ، جـ١ ، ص١٨٣ .

(١٩٨) *شرح ديوان لبيد* ، ص٥٦ ؛ والمرزباني ، *معجم الشعراء* ، ص٣٣٨ .

(١٩٩) الأصفهاني ، *الأغاني* ، جـ٢١ ، ص١٤١ .

(٢٠٠) *ديوان امرئ القيس* ، ص٣٤٤ .

(٢٠١) الميداني ، *مجمع الأمثال* ، جـ٣ ، ص٥٤٤ .

(٢٠٢) *ديوان الحطيئة* ، تحقيق نعمان أمين طه ، ط١ (القاهرة : مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م) ، ص ص ١٨٣ ، ١٨٤ . وجاء في شرحه : عبيدان ، رجل كان في أول الدهر راعياً لرجل من عاد ، كان عزيزاً قبل أن يدرك لقمان ، فلما أدرك لقمان اشتد أمره وتقدمت رعاته في شرب الماء ، وتأخر عبيدان ، فضربه مثلا لأنه بعيد . والمحلا : المطرود الممنوع من الورود .

وشبيه به قول النابغة الذبياني : (٢٠٣)

لِيَهْنِئْ لَكُمْ أَنْ قَدْ نَفَيْتُمْ بيوتنا مُنَدّى عُبيدانَ المُحَلّئ بَاقِرَه

وقال جَزء بن قطن يحذر قوماً من الظلم والبغي : (٢٠٤)

قَدْ كَانَ عَتْرُ بني عَاد وأسْـــرَتُهُ في النّاس أمْنَعَ مَنْ يمشي على قَدَم
وعـــاشَ دهراً إذا أثْوارُهُ وَرَدَتْ لمْ يَقْرَبِ الماءَ يومَ الورد ذُو نَعَـــم
أزْمَانَ كَانَ عُبَيْدانُ تَنَـــــادَرُهُ رُعاةُ وِرْد، وَوِرْدُ المَاء مُقْتَسَـــــمُ

وفي تفسيرهم للمثل القائل : " سدّ ابن بيض الطّريق ، " قال المفضل الضبي : كان ابن بيض رجلاً من عاد ، وكان تاجراً مكثرا ، وكان لقمان بن عاد يخفره في تجارته ويجيره على خرج يعطيه إياه ، يضعه ابن بيض على ثنية إلى أن يأتي لقمان فيأخذه ، فإذا أبصره لقمان قد فعل ذلك قال : سد ابن بيض الطريق . وقال الأصمعي : أصله أن رجلاً كان في الزمن الأول يقال له ابن بيض عقر ناقة على ثنية ، فسد بها الطريق ، فمنع الناس من سلوكها ، قال الحطيئة لابن جُدعان ، وتروى لأمية بن أبي الصلت : (٢٠٥)

إنّ عَمْراً وما تجشّمَ عَمْـــروٌ كَابْنِ بَيْضٍ غَدَاةَ سُدّ السّبِيْلِ

وقال المخبّل السّعدي : (٢٠٦)

لَقَدْ سَدّ السّبِيْلَ أبو حُمَيْدٍ كَمَا سَدّ المُخَاطِبَةَ ابنُ بَيْض

---

(٢٠٣) *ديوان النابغة الذبياني*، ص١٥٤ ؛ وفي شرحه : "وعبيدان عبد كان لرجل من عاد ، وكان مولاه ذا عز ومنعة ، وكان يورد أول الناس فكبر ، فغلب عليه رجل من عاد ، ويقال إن ذلك الرجل هو لقمان بن عاد ، حتى قهره ، فكان عبيدان لا يورد إبله إلا بعد مايرد غيره" . قلت : وقد وهم ابن منظور فأورد بيت الحطيئة ونسبه للنابغة ، ولعل الذي أوقعه في الوهم تشابه البيتين ، ثم شرح قصة عبيدان كما جاءت في ديواني الحطيئة والنابغة .

(٢٠٤) *ديوان الحطيئة*، ص١٨٥ ؛ والميداني ، *مجمع الأمثال* ، جـ٣ ، ص ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ . قال ابن الكلبي : كان رجل من عاد يقال له عتر ، وكان أمنع عاد في زمانه ، وكان راعيه عبيدان يرعى ألف بقرة ، وكان إذا وردت بقرهُ لم يورد أحد من عاد حتى يفرغ ، حتى أدرك لقمان بن عاد ، وكان من أشدها وأهيبها ، فأخذ عنه السبق بعد أن غلبه وقهره ، وأصبح لايورد عبيدان حتى يفرغ راعي لقمان .

(٢٠٥) *ديوان الحطيئة* ، ص٥٨ ؛ و*ديوان أمية* ، ص٤٣٤ . وعمرو هو جد عبدالله بن جُدعان .

(٢٠٦) الأصفهاني ، *الأغاني*، جـ١٣ ، ص١٩٤ ؛ والميداني ، *مجمع الأمثال* ، جـ٢ ، ص٩٨ .

وقال بشامة بن عمرو : (٢٠٧)

كَثَوْب ابن بَيْض وَقَاهُمْ به فَسَدّ عَلَى السّالكيْنَ السّبيْلا

وممن جاء ذكرهم في أشعار الجاهليين ذو القرنين، ويقال إنه الإسكندر الأكبر، وكان قبل ميلاد المسيح بنحو ثلاثمائة سنة، وجاء في سبب تسميته بذي القرنين أقوال. (٢٠٨)

وممن ذكره عبيد بن الأبرص بقوله : (٢٠٩)

وَطلَبْتُ ذَا القَرْنَيْنِ حَتّى فَاتَني رَكْضاً وكدْتُ بأنْ أرَى دَاوُدا

وقال لبيد : (٢١٠)

والصَّعْبُ ذُو القَرْنَيْن أصْبَحَ ثاوياً بالحَنْو في جَدَثٍ، أمَيْمَ، مُقِيْمِ

وقال ضوء بن اللّجاج ـ ويقال الجلاح ـ الذهلي : (٢١١)

عَلَى عَهْد ذي القَرنين كَانَتْ سُيُوْفُنَا قَوَاطعَ يقطعنَ الحَـديْدَ المُذكّرا

وقال زهير بن أبي سلمى : (٢١٢)

وَأهْلَكَ ذَا القرنين منْ قَبْل مَا تَرَى وَفرْعَوْنَ أرْدَى كَيْدَهُ والنّجَاشيَا

وكما جاء ذكر فرعون في هذا البيت لزهير فقد جاء في شعر لأمية بن أبي الصلت، قال فيه : (٢١٣)

ولَفرعونَ إذ تَشَـاقّ له المَـا ءُ، فَهَـلاّ لله كَـانَ شكُـورا
قَالَ إنّي أنَا المُجيْرُ عَلَـى النّا س ولا ربّ لي علَيّ مُجيْرا

وقوله في قصة موسى وهارون مع فرعون، في بيت سبق : (٢١٤)

---

(٢٠٧) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ١٣، ص١٩٤؛ و*ديوان الحطيئة*، ص٥٩.

(٢٠٨) ابن الأجدابي، *الأزمنة والأنواء*، ص ص ٥٢، ٥٣؛ والبيروني، *الآثار الباقية*، ص ٢٦ – ٣٧؛ وابن سعيد، *نشوة الطرب*، جـ١، ص ص ١١٢ – ١١٩؛ و*الموسوعة العربية الميسرة* (ذو القرنين).

(٢٠٩) *ديوان عبيد بن الأبرص*، ص٦٢؛ والبغدادي، *الخزانة*، جـ٢، ص٢١٦.

(٢١٠) *شرح ديوان لبيد*، ص١٠٩؛ وابن حبيب، *المحبر*، ص٣٦٥.

(٢١١) الآمدي، *المؤتلف والمختلف*، ص ص ١٤٦، ١٧٥.

(٢١٢) *ديوان زهير*، ص١٠٧؛ والبغدادي، *الخزانة*، جـ٨، ص٤٩٣.

(٢١٣) *ديوان أمية*، ص٤٠٢.

(٢١٤) انظر : *ديوان أمية*، ص٢٨.

فَقُلْتَ له يَا اذهبْ وهارونَ فادعوا إلى الله فرعونَ الذي كَانَ طاغيَا

أما طَسْم وجديس فهما من الأمم البائدة، وكانوا سكنوا اليمامة في الأزمان الغابرة، وحرب طسم وجَديس - وكانت طسم غلبت جديسا وقهرتها - مذكورة في المصادر التاريخية المختلفة، قال سُلْميّ بن ربيعة الضّبي، وهو شاعر جاهلي: (٢١٥)

والعُسْرُ كَاليسر والغنَي كالعُدْم والحَيّ للمَنُون
أهلكنَ طسْماً وبَعْدَهُ غَذيّ بُهْم وذَا جُدُونَ

وقال وَعْلَة الجَرْمي: (٢١٦)

تَرَكُوا مَذْحجاً حديثاً مُشَاعاً مثْلَ طَسْمٍ وحِمْيَرٍ وَصَدَاهَا

وقال هشام بن المغيرة المخرومي: (٢١٧)

تُحَدثُنَا أسماءُ أنْ سَوْفَ نلتقي أحَادِيْثَ طَسْمٍ، إنما أنْتَ حالِمُ

وللحارث بن ظالم المرّي: (٢١٨)

تمنّيتهُ جَهْراً على غَيْرِ ريبَةٍ أحَادِيْثُ طسْمٍ إنما أنْتَ حَالِمُ

ولقيس بن الحُدادية: (٢١٩)

فَخَرْتَ بيوم لم يكنْ لكَ فَخْرُهُ أحَادِيْثُ طَسْم إنما أنْتَ حَالِمُ

وجاء في أشعار الجاهليين ذكر زرقاء اليمامَة أو زرقاء جو، وهي من جديس، وكانت مضرب المثل في حدة البصر، ولما أنفت جديس من بغي طسم وجورها وفتكت بها واستصرخت طسم بحسان بن تبع فأقبلت جموعه لنصرتها، رأتهم الزرقاء - فيما يقوله الإخباريون - من مسيرة ثلاثة أيام، وكان جنده قد حملوا معهم الشجر لتضليل هذه المرأة، غير أنها أنذرت قومها وحذرتهم، فلم يصدقوها، فاجتاحهم جيش حسان،

---

(٢١٥) *حماسة أبي تمام*، جـ١، ص٥٦٨.

(٢١٦) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ١٦، ص٣٤٠.

(٢١٧) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٩، ص٥٢؛ والفاكهي، *أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه*، تحقيق عبدالملك بن دهيش، ط١ (مكة المكرمة: مكتبة ومطبعة النهضة، ١٤١٧هـ/١٩٨٦م)، جـ٢، ص٣٨٣.

(٢١٨) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ١١، ص١٠٣.

(٢١٩) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ١٤، ص١٥٠.

وفي هذا يقول الأعشى: (٢٢٠)

مَا نَظَرَتْ ذاتُ أشْفَار كَمَا نَظَرتْ ... يـــوماً ا ولا نَظَرَ الذّئبيّ إذ سَجَعَا
قَالَتْ أرَى رجلاً في كَفّه كَتَفٌ ... أو يَخْصفُ النّعْل، لَهْفي أيّةً صَنَعَا
فَكَذّبـوها بما قالـتْ فَصَبّحَهُـمْ ... ذُو آل حَسّانَ يُزْجي السّمَّ والسّلَعَا
فاسْتَنْزَلُوا أهْلَ جَوّ منْ مَسَاكنهمْ ... وَهَدّموا رَافعَ البُنيان فَاتّضَعَـــــا

وقال النمر بن تولب يعاتب زوجه على لومها إياه في الكرم، وكان أضافه قوم في الجاهلية، فبالغ في إكرامهم: (٢٢١)

هَلاّ سَألْت بعَادِيَاءَ وبيتـــــه والخَلّ والخمر التي لم تُمْنَـــــع
وَفَتَاتهم عَنْز عَشيةَ أبْصَـــرَتْ ... منْ بُعد مَرْأى في الفَضَاء ومَسْمَع
قَالَتْ: أرَىً رجلاً يُقَلّبُ نَعْـلَهُ ... أصْلاً، وَجَوّ آمنٌ لم يَفْـــزع
فَكَأنّ صَالحَ أهْل جَوّ غُـــدْوَةً صُبُحوا بذيْفَان السّمَام المُنْقَـــع

ويروى أن الزرقاء ملكت اليمامة بعد طسم، وهي أول من ملك من جديس، اختاروها لحكمتها وفضلها، حتى قالت العرب في أمثالها: "أحكم من نُعمان ومن زرقاء اليمامة، "(٢٢٢) قال النابغة الذبياني يخاطب النعمان بن المنذر: (٢٢٣)

أُحْكُمْ كَحُكْم فتاة الحَيّ إذ نَظَرَتْ ... إلى حمَـام شـرَاع وارد الثّمَـد
يَحُفّـه جانبـا نيـــق وتُتْبعُـهُ ... مثْلَ الزّجَاجَة لم تُكْحَلْ منَ الرَّمَد
قالتْ: ألا ليتمـا هذا الحَمَامُ لنَا ... إلى حَمَامَتنَـا ونصْفُـهُ فَقَـــد
فَحَسّبُوهُ فالفـوه كَمَـا حَسَبَـتْ ... تسْعاً وتسْعيْنَ لم تَنْقُـصْ ولم تَزد
فَكَمّلَـتْ مائةً فيهـا حَمَامَتُهَـا ... وأسْرَعَتْ حسْبَـةً في ذلك العَـدَد

أما سبأ وما حل بديارهم وبالسد الذي بنوه، سد مأرب، وهو الذي كان اعتمادهم

---

(٢٢٠) *ديوان الأعشى*، ص١٠٣؛ وابن قتيبة، *المعارف*، ص ص ٦٣٢، ٦٣٣.
(٢٢١) الطبري، *تاريخ*، جـ٢، ص٣٩؛ والبغدادي، *الخزانة*، جـ١، ص ص ٣١٩ - ٣٢١، وفيه: عنز، بفتح العين وسكون النون، اسم زرقاء اليمامة، وكانت من جديس.
(٢٢٢) الميداني، *مجمع الأمثال*، جـ١، ص٣٩٥.
(٢٢٣) *ديوان النابغة الذبياني*، ص ص ٢٣ - ٢٥؛ والميداني، *مجمع الأمثال*، جـ١، ص٣٩٥؛ وابن سعيد، *نشوة الطرف*، جـ١، ص٥٢.

عليه في أمور معاشهم، وما آل إليه حين اجتاحه الفيضان ودمرته السيول، فقد ذكر في الشعر الجاهلي وسجله الشعراء الجاهليون، قال الأعشى: (٢٢٤)

وَفي ذاكَ للمُؤْتسَي أسْوَةٌ وَمَأْربُ عَفّى عليها العَـرِمْ
رُخامُ بنته لهم حمْيَـرُ إذا جَـاءَ مَـوّارُهُ لَـم يَـرَمْ
فَأروى الزّروعَ وأعنابهـا على سعة ماؤهم إذ قُسِـمْ
فَصَارُوا أيادىَ مَا يَقْـدرُو نَ منه علىَ شِرْب طفْلٍ فُطِمْ

وقال النابغة الجعدي: (٢٢٥)

يَا أيّها الناسُ هَلْ تَرَوْنَ إلى فَارسَ بادتْ وخَدّها رَغَما
أمْسَوا عبيداً يرعَوْنَ شَاءَكُمُ كَأنّما كَانَ مُلكُهُـمْ حُلُمَا
أو سَبَأ الحَاضرِيْنَ مَأربَ إذْ يبنـونَ دونَ سَيْلـه العَـرِمَا

أما ورود اسم تبع ـ والتبابعة من ملوك اليمن الأقدمين، وكل من ملك اليمن منهم سمّي تبعا ـ فهو سياق تاريخي دال على عودة إلى الماضي البعيد فيكون ذلك أدعى للعظة والاعتبار، وقد أشار إلى ذلك الشعراء الجاهليون في سياق الحديث عن الأمم الغابرة والملوك الذين سادوا ثم بادوا. قال المتلمّس الضبّعي: (٢٢٦)

أَلَمْ تَرَ أنّ الجَوْنَ أصْبَـحَ راسياً تُطيـفُ بُـــه الأيـامُ ما يَتَأيّـسُ
عَصَى تُبعاً أيامَ أهلكت القُرى يُطانُ على مثل الصَّفيح ويُكلَس

وقال زهير بن أبي سلمى: (٢٢٧)

أَلَـمْ تَرَ أنّ الله أهلـكَ تُبعَـــاً وأهلكَ لُقمـانَ بنَ عَـادٍ وعَادَيا

وقال لبيد: (٢٢٨)

---

(٢٢٤) *ديوان الأعشى*، ص٤٣؛ وابن هشام، *السيرة النبوية*، جـ١، ص١٤؛ والجاحظ، *الحيوان*، جـ٥، ص٥٤٨.

(٢٢٥) *شعر النابغة الجعدي*، ص ص ١٣٤، ١٣٥. وتنسب الأبيات في مصادر إلى أمية بن أبي الصلت (انظر: *ديوانه*، ص٤٩٠؛ *والسيرة*، جـ١، ص١٥).

(٢٢٦) *ديوان المتلمس الضبعي*، تحقيق حسن كامل الصيرفي (القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م)، ص١١١؛ *وحماسة أبي تمام*، جـ١، ص٣٣١.

(٢٢٧) *ديوان زهير بن أبي سلمى*، ص١٠٧.

(٢٢٨) *شرح ديوان لبيد*، ص١٧٣.

دَعَا أَرْبداً دَاعٍ مُجيباً فأسْمَعَا ولَمْ يَسْتطعْ أنْ يَستَمرّ فَيَمْنَعَا
وكَانَ سَبِيْلَ النّاسِ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ وذاك الذي أفْنَى إياداً وتُبّعَا

وقال لبيد أيضا: (٢٢٩)

غَلَبَ اللَّيالي خَلَفَ آل مُحَرّق وكَمَا فَعَلْنَ بتُبّع وبهرْقَل

ولمتمم بن نويرة في الحادثات وفعلها، ويروى بعضها لأخيه مالك: (٢٣٠)

ولَهُنّ كَانَ الحارثان كلاهُمَا ولهُنّ كان أخُو المَصَانع تُبّع

أما السّاطرون، ويعرف أيضا بالضّيْزَن، وهو ابن معاوية بن العبيد، كان يسكن الحضر، مدينة بين دجلة والفرات، وقيل هو الذي بناها، غزاه سابور ذو الأكتاف فأخذه وقتله، وقد قيل إنه الذي غزا الأعرج من ولد سليمان النبي، صلى الله عليه وسلم، بالقدس، وكاتبه بختنصر، وملك الحضر بعد مقتل الضيزن. (٢٣١) وفيه قال أبودؤاد الإيادي: (٢٣٢)

وأَرَى المَوْتَ قَدْ تَدَلّى مِنَ الحَضْرِ عَلَى رَبّ أهْله السّاطرُون

وقال عدي بن زيد: (٢٣٣)

وَأخُو الحَضْر إذْ بَنَاه وإذْ دِجْلَةُ تُجْبَى إليه والخَابُورُ
شَادَهُ مَرْمَراً وَجَلّلَه كلْ سّاً فللطّيْر في ذُرَاهُ وُكُورُ
لَمْ يَهَبْهُ رَيْبُ المَنُونْ فبَادَ المُلْكُ عنه فَبَابهُ مَهْجُورُ

وقال عمرو بن كلثوم، وتنسب إلى عمرو بن إلّة: (٢٣٤)

---

(٢٢٩) شرح *ديوان لبيد*، ص٢٧٥. والخلف: البقية من الناس، وأراد هرقلا فاضطر وغيره.
(٢٣٠) الضبي، *المفضليات*، ص٥٣.
(٢٣١) انظر: ابن منظور، *لسان العرب* (سطر)؛ وابن سعيد، *نشوة الطرب*، جـ١، ص١٨٠؛ وياقوت الحموي، معجم *البلدان* (حضر)؛ والزركلي، *الأعلام*، جـ٣، ص٢١٦.
(٢٣٢) ابن قتيبة، *المعارف*، ص٦٥٣؛ وابن سعيد، *نشوة الطرب*، جـ١، ص١٨٠.
(٢٣٣) *ديوان عدي بن زيد*، ص٨٨؛ والأصفهاني، *الأغاني*، جـ٢، ص١٣٩؛ وابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، جـ١، ص٢٢٦؛ وابن سعيد، *نشوة الطرب*، جـ١، ص١٨٣.
(٢٣٤) السهيلي، *الروض الأنف في شرح السيرة*، تحقيق عبدالرحمن الوكيل (القاهرة: دار الكتب العربية، مطابع دار النصر، د.ت.)، جـ١، ص٣٢٤؛ والمسعودي، *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، ط٣ (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م)، جـ٢، ص٢٥٧؛ وابن سعيد، *نشوة الطرب*، جـ١، ص ص ١٨٠، ١٨١؛ وياقوت، معجم *البلدان* (حضر).

ألَـمْ يأتيـك والأنبـاءُ تَنْمـي بمَـا لاقَتْ سَرَاةُ بنـي العَبيْـد
ومَصْـرَعَ ضَيْـزَنَ وبني أبيْه وأحْـلاس الكَتَـائب من تَزيْـد
أتَاهُـمْ بالفُيُـول مُجَلّلات وبالأبطـال سَابُـوْرُ الجُنُـوْد

أما الزبّاء وجذيمة الأبرش، وخبرهما مشهور مذكور في كتب التراث،[٢٣٥] فقد جاء ذكرهما وذكر من اتصل بهما في الشعر الجاهلي، ومن ذلك قول عدي بن زيد[٢٣٦] في شعر قصصي:

دَعَـا بالبَقّـة الأمـراءَ يومـاً جَذيمَةُ عَصْـرَ يَنْجُوْهُـمْ تُبَيْنَـا
فَطَاوَعَ أمْرَهُمْ وعَصَىٰ قَصيْراً وكانَ يقـولُ، لو تَبِعَ، اليقينـا
ودَسّـتْ في صَحيْفَتهَـا إليـه لِيُملـكَ بُضْعَهَـا ولأنْ تَدينَـا
فَأرْدَتْهُ، ورُغْبُ النّفْس يُرْدي ويُبـدي للفتى الحَيْنَ المُبينَـا
وخَبّرَت العَصَا الأنباءُ عَنْـهُ ولَـمْ أرَ مثْـلَ فَارسَهـا هَجَيْنَـا
وقَدّمَـت الأديْمَ لِراهشَيْـه وألفَـىٰ قولَهـا كَذباً ومَيْنَـا

---

(٢٣٥) الزباء هي بنت عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع، الملكة المشهورة، عاشت في القرن الثالث الميلادي، وملكت تدمر، وكانت تابعة للرومان، بعد وفاة زوجها، والعرب تقول بعد أبيها، يسميها الإفرنج (زنوبيا) وهي التي قتلت جذيمة الأبرش (الوضاح) ملك العراق، فاحتال ابن أخت له اسمه عمرو بن عدي، حتى دخل قصرها وهم بقتلها فاحتست سما قاتلا، وقالت: بيدي لا بيد عمرو. وللإفرنج في نهايتها رواية أخرى. وفي الكتاب من يقول إنهما إثنتان: الأولى اسمها نائلة، ولقبها الزباء، وهي التي قتل جذيمة أباها وقتلت نفسها بالسم. والثانية زينب المسماة عند الرومان زنوبيا، وهي التي تولت الحكم بعد مقتل زوجها أذينة وماتت في سجن أورليان الروماني (انظر: الطبري، *تاريخ*، جـ٢، ص٣٢؛ والميداني، *مجمع الأمثال*، جـ٣، ص ص ١٤ - ١٦؛ وابن قتيبة، *المعارف*، ص٦١٨؛ وابن سعيد، *نشوة الطرب*، جـ١، ص٦٨؛ والزركلي، *الأعلام*، جـ٣، ص٤١).

(٢٣٦) ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، جـ١، ص٢٢٧؛ وعبدالرحيم العباسي، *معاهد التنصيص على شواهد التلخيص*، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد (بيروت: عالم الكتب، ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٧م)، جـ١، ص٣١١. وبقة: موضع أو حصن قريب من الحيرة. ينجوهم: يناجيهم. والثبون: جمع ثُبة بالضم، وهي العصبة من الفرسان. والعصا: فرس جذيمة. والراهشان: عرقان في باطن الذراعين.

وقال القعقاع بن درماء الكلبي، وهو من شعراء الجاهلية: (٢٣٧)

أتَعْـرفُ منـزلاً بينَ المُنقّـى وبينَ مَجَـرّ نَائلَـةَ القَـديْمِ

وقال المُخبّل السّعدي: (٢٣٨)

صَافَحْتُ ذَا جَدَن وَأدْرَكَ مَوْلدي عَمْـرو بنَ هنْد يُتّقَى بالرّاح
وجَذيْمَـةُ الوَضّاحُ يُخبـرني أبَي عَـنْهُ فأينَ جَذيْمَةُ الوَضّـاحُ

وقال مُتمّم بن نُويرة في رثاء أخيه مالك: (٢٣٩)

وكُنّـا كَنَـدْمَانَي جَذيْمَـةَ حِقْبَـةً من الدّهْرِ حتى قيل لَنْ يَتَصَدّعا
فَلَمّـا تفرقنـا كَأنّي ومَالكـاً لطُول اجتماع لم نَبِتْ ليْلةً مَعَـا

وقال أبو خراش الهُذلي: (٢٤٠)

ألَمْ تَعْلَمي أنْ قَدْ تَفَـرّقَ قَبْلَنَا خَليْلا صَفَـاء مالكٌ وعَقيْـلُ

وبعد فإن الناظر في هذا البحث يدرك أنني لم أعن ببعض الإشارات إلى حوادث أو وقائع عاصرها شعراء الجاهلية أو كانت قبلهم بزمن قريب، مثل قصة الفيل، وما كان عزم عليه أبرهة من هدم الكعبة، وكما جاء في أشعارهم من ذكر الملوك والأمراء الذين كانوا في زمن الشاعر أو قُبيله، مثل النجاشي، وكسرى وهرمز، والغساسنة، والمناذرة، لأنها وقائع وحوادث وأسماء وشخوص متداولة أخذت صفة الثقافة الجمعية التي هي ثمرة ما يدور في مجالسهم ونواديهم، بخلاف ما هو موغل في القديم لا يحيط به ولا يدركه إلا نفر منهم ممن كان لهم اتصال بغيرهم من الأمم أو قرأوا كتبها وظفروا بشيء من ثقافاتها. ولعل القارئ يلحظ كثرة النصوص الشعرية مما نتج عنه كثرة

---

(٢٣٧) الطبري، *تاريخ*، جـ٢، ص٣٢؛ والمرزباني، *معجم الشعراء*، ص٣٢٩. وقال: نائلة هي الزباء بنت عمرو بن الظرب، من العماليق، وهي الملكة قاتلة جذيمة الأبرش.

(٢٣٨) الآمدي، *المؤتلف والمختلف*، ص١٧٨.

(٢٣٩) ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، جـ١، ص٣٣٨؛ والضبي، *المفضليات*، ص٢٦٧؛ والميداني، *مجمع الأمثال*، جـ٣، ص١٦؛ وابن سعيد، *نشوة الطرب*، جـ١، ص٦٩. وأراد بندماني جذيمة رجلين اسم أحدهما مالك والآخر عقيل ابنا خارج، وهما اللذان وجدا ابن أخت جذيمة عمرو بن عدي، فبلغاه الملك، فحكّمهما فسألاه منادمته، فلم يزالا نديميه حتى فرق الموت بينهم.

(٢٤٠) السكري، *شرح أشعار الهذليين*، جـ٣، ص١٩٠؛ والميداني، *مجمع الأمثال*، جـ٣، ص١٦.

الإحالات إلى المصادر المختلفة، كما يبدو ذلك من هوامش البحث، ولكنني قد حرصت على تتبع ما استطعت منها، لأنها مواطن الثقافة التاريخية، وعليها مرتكز البحث وقوام فكرته. على أنني قد أعرضت عن كثير من الشعر الذي جاء في كتب المغازي والسير، وبعض كتب الأخبار، لأنها أشعار لا يُعتد بها ولا يُطمأن إلى مثلها، وإنما اقتصرت - كما يرى القارئ - على أشعار الشعراء المعدودين من شعراء الجاهلية، وإن كنت لا أزعم ألا يكون دخل في أشعارهم شيء مما لم يقولوه، وإنما نسب إليهم، غير أني اجتهدت في الاعتماد على ما أرجّح أنه شعر جاهلي تطمئن النفس إلى الاستدلال به والاتكاء عليه في تلمس ثقافة القوم التاريخية. على أن هذا ليس استقصاء استقصيه ولا إحصاء أحصيه، ولكنه تلمس نصوص من نتف متفرقة، تؤكد ما أردت الوصول إليه من أن عرب الجاهلية كان لهم وعي تاريخي ولهم ثقافة تاريخية.

The Historical Knowledge of the Pre-Islamic Arabs: Readings in *Jahiliyya* Poetry

Abdul Rahman A. al-Debasi
Assistant Professor, Department of Arabic Language, College of Arts, King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia

Abstract. This paper is an attempt to challenge the widespread belief that the Arabs of the *Jahiliyya* were mere nomadic tribes who were isolated in their peninsula from the outside world, and did not have any kind of culture. It has been claimed also that they were ignorant of the scientific attachments and cultures of the neighboring peoples. I will try to show that such claims are unfounded and Arabic sources testify to the ancient Arabs' knowledge of the histories and cultures of their own and others. These findings will be documented mainly by examining *Jahiliyya* poetry and other Arabic sources, which were devoted to recording aspects of the *Jahiliyya* period